
الشيخ بخاري أحمد عبده
الآل والأهل والمودة
في القربى
شبكة
الألوكة
www.alukah.net

الآل والأهل والمودة

في القربى

لفضيلة الشيخ

بخاري أحمد عبده

من علماء الأزهر

(يرحمه الله)

أعده للطبع وخرج أحاديثه

عبد المعطي عبد المقصود محمد

الأمين العام لجماعة أنصار السنة المحمدية بالإسكندرية



اسم الكتاب	الآل والأهل والمودة
المؤلف	بخارى أحمد عبده
رقم الايداع	
الطبعة	الطبعة الاولى
عدد النسخ	٢٠٠ نسخة

تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين *وبعد* . . .

هذا هو الكتاب الثالث "**الآل والأهل والمودة في القربى**" للأستاذ العلامة **بخارى أحمد عبده** سطره براع عالم أريب أديب يذب فيه عن دين رب العالمين الذى ارتضاه للعباد ألا وهو الإسلام دين الله عز وجل لدنيا الناس وعن حامل هذا الدين ومبلغه خاتم الأنبياء والمرسلين بكشف عوار الملحدين والمتربصين وزيف الزائفين وكذلك المخرفين من الرافضة والصوفية الذين جعلوا آل البيت فوق خلق الله أجمعين وميزوهم بميزات ما أنزل الله بها من سلطان وتيمموا سطر المقاصير والقباب والمشاهد يطوفون حولها ويستجدون بالأموات طلباتهم فإن ذكرتهم بالله عز وجل اشمأزت قلوبهم وقالوا : ما نعبدهم ولكننا نتقرب إلى الله بهم.

يفرحون ويمرحون كلما ذكر غير رب العالمين ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ الزمر ٤٥.

لقد بسط الأستاذ ما يتشدقون به من آيات يضعونها في غير موضعها وأحاديث يستدلون بها مكذوبة وضعيفة أو هى من بيت العنكبوت والصحيح منها يؤولونه على هواهم.

فأهوى بمعاول العلم الهدامة لما يفترون ومعاول اللغة المترامية كل ليبين جهل هؤلاء الذين يتعلقون بسراب سرعان ما يجدونه لا شيء.

وقد طاف بنا على آيات **الآل والأهل والقربى** معتمداً ومبتدءا بأقرب الناس إلى رسول الله ﷺ الذى وقف لدعوة الله بالمرصاد بعد أن تسلطت عليه أنثى قصار يسير بسيرها ويخضع لها وأصبح طوع أمرها فحكم الله عليه وعليها بالنيران ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ المسد.

وانتشر الدين وظهر الحق رغم وقوف المعاندين والكافرين والمنافقين والمشركين لإيقاف هذه الرسالة فباءوا بالغضب والخسران والخزى فى الدنيا والنيران يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون .

هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ـ التوبة

ستقرأ في هذا البحث الشائق الشائك لغة عالية وأدباً رفيعاً وأدلة من القرآن ناصعة ومن السنة يانعة قذائف الحق على أعداء الدين واللاعبين والمستهزئين والحاقدين والملحدين والمشركين إننا مهما قلنا فلن نوف الأستاذ الفاضل والموجه الكريم والشيخ الجليل لن نوفيه حقه فنسأل الله عز وجل العلى القدير أن يجزل له الثواب وأن يجعل هذا في ميزان الحسنات يوم يقوم الناس لرب العالمين،،

انه الهادى إلى سواء السبيل والصلاة والسلام على خير الأنام محمد عليه أفضل الصلاة والسلام.،،،

مُعد الكتاب
عبد المعطى عبد المقصود
أمين عام
جماعة أنصار السنة المحمدية
بالاسكندرية

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ المسد

الآيات ـ بالنظرة الأولى ـ تنذر بيت أبى لهب بسوء المآل وتبشر ـ بهلاك محقق يحيق فلا ينفع فيه مال ولا تجدى أعمال ولا تغنى عشيرة ولا نسب وتصور زوجى السوء يغلان في قرن[1] ويدعان[2] إلى جهنم دعا حيث يذل كل منهما ويخزى وتخرجهما مخرج ابتذال وهوان.

وهى كذلك توحى بأن زوجى السوء قد سبق عليهما القول فلا مجال لأوبة ولا مطمع فى إيمان ولا رجاء فى خلة أو شفاعة وكأن المولى بهذا القرار وهذا الإعلان المبكر يوحى إلى رسوله بمثل ما أوحى إلى نوح ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ﴾هود٣٦ ﴿لاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أهلكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ ﴿اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾هود٤٨.

ذلك محصلة النظرة الأولى. ولكن القرآن معجز ومن إعجازه أنه يعطى عطاء غير مجذوذ وأن مقتطفاته خالدة لا يدركها بلى ثرة[3] لا يلحقها نضوب ريانة لا يعتريها ذبول مثمرة أبداً وموافقة برغم أزليتها وتعلقها بأشخاص معينين ـ تظل ريانة تتقلب مع دهرك وتعكس لك من صور معاصريك وأحداث عصرك ما ترى خلالها وجوها تعرفها وأحدثا تعيشها ومشاكى تفيض بالنور ومواطن تغوص في الظلمة وبقاعا ترفل في الخير

---

(1) القرن : الحبل.
(2) يدعان : يدفعان.
(3) ثرة : غزيرة.



ومراجل تغلي بالعلقم وتتوقد تحتها النار ودعاة من ورثة الأنبياء يبلون المر ويتجرعون الصاب ويلقون ما يلقون وهم ينشدون:

إن الذى خلق الحقيقة علقما　　　لم يخل من أهل الحقيقة جيلا

ولربما قتل الغرام رجالها　　　قتل الغرام كم استباح قتيلا

ومن شواهد العطاء الذى لا ينفذ هذه السورة الفريدة فى القرآن التى كثيرا ما نتجاوزها إلى غيرها ظانين أنها تصور موقفا ساكنا سجلت السماء فيه ضلالاً العمومة وعنت العشيرة الأقربين أو أنها تعالج تصرفا اقتضى التنديد والتهديد والتشهير حتى يكون صاحبه عبرة ومثلا للآخرين أو أنها نص حكم استثنائي اقتضته ظروف سلفت ولن تتكرر.

والحق أن السورة رغم جوها الذى يبدو شخصيا تحوى من مشاهد الدنيا وحقائق الآخرة معانى ننتقل منها جهد الطاقة وسع البصيرة ويبقى بعد كل ذلك مزيد لمستزيد.

فقصة هذه العمومة الضالة تذكر بمثل في الأولين يجمع بين بر البنوة وفظاظة الأبوة ويتلو عليك من سيرة إبراهيم عليه السلام قول الله ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾مريم. وتذكر بنزغ الشيطان بين يوسف واخوته وكيف لعب ببنى يعقوب حتى أخترءوا على يعقوب وتقرأ في ذلك من سورة يوسف قوله سبحانه :

﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ* اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ* قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ يوسف٨: ١٠.

وتذكر بامرأة نوح وامرأة لوط . وكل هذه كانت هزات فى بيوت نبوة ولكنها لم تبلغ فى إيجابيتها ما بلغ شأن أبى لهب.

قصة تلك العمومة الضالة تثير ـ ضمن ما تثير ـ حقيقة أن المؤمنين أخوة وأن الإسلام رحم بين أهله وأن كل من احتل في دولة الإسلام الصدارة وتبوأ المركز الأسمى ملكا كان أو رئيسا أو أميراً فهو أب وأخ وعم فان استبد وعطل أو صد وتعلل أو استميل فمال وانطوى كان في موقعه الذى هو فيه أبا لهب وصار في زمرة اللهيبين إلى تباب.

ويقينى أن الله أحكم هذه السورة وأثبتها كى تذهب مثلا يعتبر به كل من عادى ما أنزل الله اغتناما للفرصة أو جلبا للجاه أو إبقاء على السلطة أو تحببا للسلطان أو مطاوعة للهوى أو إيثاراً للمألوف أو اغترارا بالصولة أو اعتدادا بالقوة ونفخة الشيطان أو انبهار بما أتيح له من زينة الحياة الدنيا.

والسورة إذ تسجل موقف زوجى السوء تعلم الدعاة أن الشيطان كى نستنزل على أبى لهب الآخرين ما أنزلت السماء على أبى لهب الأولين.

والسورة إذ تسجل موقف زوجى السوء تعلم الدعاة أن الشيطان وهو يكيد قد يدور حولك دورات ماكرة ويجند ضدك من داخلك ومن بنى جلدتك أسنة وأرماحاً وقنوات يمزق بها الأشلاء ويقطع بها الأوصال وقد يتخذ من أهلك خيولا تثير بسنابكها الغبار لتكثف الظلمة وتخنق الأنفاس وقد ينصب منهم دعاة يحدون إلى أبواب جنهم من أجابهم إليها قذفوه في النار. هكذا حتى يتآكل

المسلمون من الداخل ولقد لقن الشيطان أولياء هذا الأسلوب فمارسوه وأيقنوا بالممارسة أن الشجرة لا يقطعها إلا فرع منها. عرفوا ونسينا نحن رغم الأحاديث الصحيحة الصريحة التى فصلت لنا هذه القضية "... هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا.."[1] "وأن ربى قال : يا محمد... وأنى أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة عامة وألا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها ـ أو قال من بين أقطارها ـ حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسبى بعضهم بعضا"[2] .

لا محسوبية في الإسلام

والقرآن اذ يشهر بعم النبى ﷺ هذا التشهير المر يضع قاعدة أنه لا محسوبية فى الإسلام.. ذلك لأن أبا لهب لم يكن أول الكافرين ولا آخرهم بل له نظراء ربما كانوا أفجر منه وأعتى ولكن القرآن خصه بالتشهير كى يتضح من أول وهلة أن لحمة النسب قد تحقق قرب مكان ولكنها لا تحقق قرب مكانة وأن الحسيب النسيب إذا أجرم لا يفلت فى الإسلام من العقاب ويحضرنى في هذا المقام حكمة تتناسب مع هذه القضية هى قول الشاعر:

أنى وقتلى سليكا ثم أعلقه ... كالثور يضرب لما عاقت البقر

إلا أن أبا لهب هنا ضرب لأنه كان فى العائقين وكان يخوض مع الخائضين

ورابطة الإسلام التى يعتد بها هى رابطة الإيمان التى تورث الحب ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾مريم٩٦. والتى توجب الترابط والاجتماع في الله ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ

---

(1) البخارى كتاب المناقب حديث ٣٦٠٦ وطرفه ٣٦٠٧، ٧٠٨٤ مسلم كتاب الامارة حديث ١٨٤٧ عن حذيفة رضي الله عنه .

(2) مسلم من حديث ثوبان كتاب الفتن حديث ٢٨٨٩.

بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾الكهف٢٨.

أما العلاقات الدنيوية فإنها تعادل في ميزان الإسلام لا شئ فاذا جرت إلى الضلال وأورثت العمى كانت منبوذة ممنوعة ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ العنكبوت. واستحالت ـ تلك العلاقات ـ ويوم الدين صياحا يفرى الحشا ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾الفرقان.

والقرآن حريص على أن يقر في أذهان المسلمين معنى "لا محسوبية" وحتى لا يتوهم أن هذه القاعدة أخترمت باستغفار إبراهيم لأبيه.. يؤكد القاعدة ثم يبادر بتعليل ذلك الموقف ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾التوبة١١٤.

والعمدة فى هذا الباب قول الله : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ* قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾التوبة٢٣-٢٤.

وتأكيدا لهذه المعانى ونبذا للصلات الدنيا إذا تضاربت مع وشائج القيم نقرأ في القرآن ما يوحى ـ في ظنى ـ بأنه لا قداسة لتراب تغتال فوقه القيم وتوءد فيه الحريات ولا قداسة لأبوة أو بنوة أو أخوة تقف موقف الحرب أو تؤثر جانب السلب وهى ترى دعاة القيم وحملة مشاعل الأنبياء يقصون، ويؤذون، ويردون. ذلك ما أستوحيه من رفض المولى سبحانه أن يقسم بالبلد يضار فيها الرسول وتستحل حرمته ولا بوالد وولدان تستقطبهم الأنوية أو تستهويهم الفردية، أو تستعبدهم النفعية العمياء، أو تحركهم الأمعية البلهاء أو تشلهم السلبية الصفراء فلا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكرا ذلك قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ البلد١، ٢.

وانحطاط أولى القربى الأدنين إلى هذا الدرك شئ ينكره العرف العربى ولقد قال قائل العرب قديما:

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على المرء من وقع السهام المهتد

وقال قائلهم حديثاً:

ويح بنى أخى وينكاء جرحى بيديه ممن يشد الضمادا

فلا عجب ـ إذن ـ إذا رأينا الدين يحتم مفاصلة هؤلاء ولكن مع موالاتهم بالوعظ وملاحقتهم بالقول المؤثر البليغ مصداق قول الله : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾النساء٦٣.

عود إلى أبى لهب

١ . والحق أنه لم يعرف في العشيرة الأقربين عتل كأبى لهب في أذيته لابن أخيه وتنقصه له ولدينه فلكم بالغ فى العداوة ونبا نبوا بعيدا ومن شواهد هذا: موقفه من الدعوة منذ اللحظة الأولى، فقد اخرج البخارى

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى: يا صباحاه، فاصبحت إلى قريش فقال: أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصيبكم أو ممسيكم أكنتم مصدقى؟ قالوا نعم قال فإني نذير لكم بين عذاب شديد. فقام أبو لهب ينفض يديه وهو يقول: تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟[1] هكذا في غير إتزان ولا ترو ولا أناة ولا عفة لسان.

وروى أحمد والطبرانى عن ابن عباس أنه قال : سمعت ربيعة ابن عباد الديلى يقول: انى وأبى ـ رجل شاب ـ أنظر إلى رسول اله يتبع القبائل ووراءه رجل أحول وضيء الوجه ذو جمة يفق رسول الله ﷺ على القبيلة فيقول : يا بنى فلان أنى رسول الله آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وأن تصدقونى وتمنعونى حتى أنفذ عن الله ما بعثنى به. فإذا فرغ قال الآخر: يا بنى فلان هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تسمعوا له ولا تتبعوه. فقلت لأبى: من هذا ؟ قال عمه أبو لهب[2].

وهذا دأب الطغاة ينصتون لخصومهم ويرصدون حركاتهم ويخلعون عليهم أشنع النعوت وينحلونهم شتى الجرائم بغيا يمهدون بذلك إلى ما يبيتون من إيذاء وقهر وتصفية ألم يقل فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾غافر٢٦. ألم يقل الملأ من قومه : ﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾الأعراف.١٢٧

٢ . ولقد شذ وحده عن بنى هاشم يوم أجمعت الخصوم على مقاطعتهم إن هم آزروا النبى ﷺ وحالف عليهم الخصوم ووقع معهم على صحيفة المقاطعة

(1) ظنى أن "لا" على بابها نافية وليست ملغاة أو زائدة.

(2) فى مجمع الزوائد رواه عبد الله بن أحمد والطبرانى وفيه ووقفه ابن معين في رواية مجمع الزوائد جـ٦ ص٣٦ ربيعه بن عباد من بنى الدبل.

والتجويع ولضغط وطاب له أن يرغد وينعم ويتخم وبنو أبيه يبيتون على الطوى ويتقوتون بورق الشجر

٣- ومن كيده أنه فسخ خطبة ولديه لبنتى رسول الله كراهية واضرارا وأثقالا على رسول الله ﷺ - إلى غير ذلك من المضايقات وسوء الجوار وكلها تنبئ عن الشذوذ والنفسية المتقيحة التى لا تعرف البر ولا تنم عن رجولة أو نخوة أو عزة.

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ المسد١: ٤.

موقف زوجى السوء

وهو موقف ربما بدا شخصيا والحق أنه مرآة تعكس من مزالق العصر- وتكشف من الأشخاص والأحداث والأهواء ما تبصره مجسما ملموس الغدوات والمروحات. تتراقص أطيافه من حولك وتتواثب على مسرحك. وكأن البشرية حلقة مفرغة تدور أو إيقاع رتب ولكن بتوزيع موسيقى جديد.

والسورة - **بإيماضاتها** - مثل حى لكل آثم حاقد، مثل حرى أن يقيم الأخادع المصعرة ويصدع كل مبطل جاحد يتنكر للحق ويكفر بالقيم ويقطع الأواصر ويطرح - فى غير أثم - لحمة النسب كذلك تشى إيماضاتها بالمنحرفين فى كل أوان وتستنزل لعنة الله والملائكة والناس أجمعين على اللهبين فى كل زمان ومكان.

وهى فوق كل هذا قمة فى العدالة ومثل يعلن - كما ذكرنا باستمرار أنه لا محسوبية فى الإسلام ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا

يَتَسَاءَلُونَ﴾المؤمنون١٠١. والصور نذير بمحن القيامة كذلك الإسلام نـذير بـين يدى عذاب شديد.

والمولى سبحانه يقص علينا القصص ويزجى التجارب ويسوق العـبر كـى تستقر فى دنيا المسلمين ذخائر وأصول تربية ومنابع خبرة تهدى فى المسيرة الشاقة المضنية وتعصم من كل قاصمة يسددها الشيطان إلى ظهر الإيمان ومن كل غائلة تخفيها الليالى أو تخبئها لنا الأيام ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَـابِ مَـا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾يوسف١١١.

والبشرية تلتبس بدكنة الجبلة وعفن الحمأ المسنون وهذا الغبش (الظلمة) الذى يخيم على ركبها خبث بشرى كخبث النحاس أو صدأ الحديـد يتصـاعد من تلك الدكنة وذلك العفن مفعما بالرين (الدنس والخبث) .

والبشرية لا تزال تفرز من خبثها قدرا يموه الوجه الطيب ولن تبرح تقذف بزبدها حتى يغشى الحق فيدق الفيصل بين الباطل والحق والكير (زق ينفخ فيه الحداد) الذى ينفى الخبث ويفصل الزبد هو هذا الدين بكل هدياته وآياته التى تحتم اليقظة والمثابرة وتفرض الحركة الواعية البصيرة.

ولعل القرآن الكريم ـ إيماء إلى مثل هذا ـ ضرب مثل الأودية بأمواهها ومثل الذهب يفتن على مواقد حتى يخلص النضار ويذهب الزبد ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ﴾الرعد١٧.

كذلك يضرب الله الأمثال، وينوع المواقف حتى تنضج زاداً لأيام التحاريق، وتعدو أمصالاً، وتجارب تحصن أو تسعف كلما تجددت الصروف، وتكررت الظروف.

والعجب أن يصدر مثل تلك المواقف من عربى يخضع لقانون العصبية، وتحكمه روح المعاني التي طالما تغني بها الشعراء من نحو قولهم:-

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهاناً ومن نحو قولهم:

وما أنا إلا من غزية أن غوت غويت، وان ترشد غزية أرشد.

وأعجب العجب أن يكون ذلك العربى في مقام الوالد، ثم يستطيب أن يقف من ابن أخيه تلك المواقف الشائنة الخائنة : يتعقبه، ويغري به، ويكذبه، ويؤذيه...الخ.

مس أنثي

ونحن إذا تعمقنا الأجواء النفسية المحيطة بزوجي السوء حكمنا بأن فعال أبي لهب لا تتأتى إلا من إمرىء مشغوف، سَبَتْه أنثى فاستأثرت بمشاعره، وسلبت إرادته، وشلت تفكيره، ثم أطلقته فانطلق موجَّهاً (بفتح الجيم المشددة)، منوّماً (بفتح الواو المشددة)، يهرف، ويخرف، صبوت صبوتها، وبجدته بجدتها (أصله أصلها) هواه هواها، وأمره إليها، وصدق رسول الله "ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة". والحق أن حمالة الحطب ـ أخت أبي سفيان ـ أروى بنت حرب بن أمية ـ كانت سفيانية المشرب، أموية المنقلب. كانت شخصيتها الطاغية تأخذ بناصية زوج السوء وتقف منه موقف المنوم المغناطيسي من وسيطه.

ولقد كانت ـ كعشيرتها ـ يؤرقها أن تخلص السيادة لبني عبد مناف، وأن توفر لهم النبوة أسباب السيادة التي لا تداني . فراحوا يرددون بلسان الحال مقالة

أبي جهل "تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف. أطعموا فأطعمنا، وسقوا فسقينا، وحملوا فحملنا حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا نحن وهم كفرسي رهان قالوا : منا نبى يوحي إليه ؟ فمتى ندرك ذلك ؟ والله لا نؤمن به أبداً ".

وإذا كان ذكران العشيرة يخططون بطريقتهم فلتجند هى كل خصائصها الأنثوية من : كيد، ومكر، وإغراء، وإثارة...الخ لتقطع الشجرة بفرع من فروعها.

وانطلق أبو لهب أهوج فاقد الوزن يحقق لعشيرتها ولها ما تريد. ويشيع أن محمد صريع يتخطبه شيطان. وأن قومه يتكلفون بغية إبرائه فوق ما يتصور. وأن..... وأن.....

وهذا التحليل ليس بدعاً. فالتاريخ ملىء بأخبار الرجال الذين أراقوا معاني الرجولة قرباناً بين أقدام النساء. والحاضر يتحدث عن رعاة ذلوا للأنثى، وانقادوا للأنوثة وأطلقوا للقرينة العنان تحل وترحل، وتحل وتربط، وتشرع فتمكن للمرأة وتسلب الرجل قوامته وفضله وتقدمه. والعجيب أن كل محاسيب النسوان هووا فكانوا مصداق قول الله: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آَخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ الدخان٢٥-٢٩.

والأنوثة فيض المرأة، فهى دائماً تخفق بالعواطف، والبيت حلمها وملكها الفسيح. والقرآن يمتدح خير النساء بالإكتنان فيقول : ﴿ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ الواقعة٢٣ ويقول ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ الصافات٤٩. ويقول ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ الرحمن٧٢. فإذا انسلخت كانت كالماء المسكوب مآله إلى وحل.

بل الإسلام نفسه يحدثنا عن رجال مترنحين. فقدوا أمام إغراء الأنوثة أقدارهم وأوزانهم. وانطلقوا خلف ربات الحجال يلهثن ويلهثن. ومن ذلك:

قصة بريرة فلقد روى في الصحاح أن عائشة رضى الله عنها اشترتها وأعتقتها. فخيرها رسول الله ـ بحكم نعمة الحرية التي من الله بها عليها ـ بين أن تبقى في عصمة زوجها ـ مغيث ـ وبين أن تنفصل فاختارت الانفصال.

في البخاري عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان زوج بريرة عبداً أسود يقال له مغيث. كأني انظر إليه يطوف خلفها في سكك المدينة يبكي، ودموعه تسيل على لحيته، فقال النبى ﷺ للعباس : يا عباس ألا تعجب من حب مغيث بريرة، ومن بغض بريرة مغيثاً ؟ فقال النبى ﷺ لبريرة لو راجعته فقالت يا رسول الله : أتأمرني ؟ قال : إنما أشفع. قالت : لا حاجة لي فيه[1].

وقصة مهاجر أم قيس متداولة محفوظة. فقد ذكر ابن دقيق العيد، والطبراني وسعيد بن منصور عن ابن مسعود، أن رجلاً هاجر من مكة إلى المدينة لا يريد بذلك فضيلة الهجرة . وإنما هاجر ليتزوج امرأة تسمى أم قيس . فكان يقال له مهاجر أم قيس قالوا: واليه ألمح رسول الله ﷺ في حديث "إنما الأعمال بالبنيات ... الخ"[2].

ومثل هؤلاء أحرى أن يكونوا من رجال الهدهد، هدهد سليمان عليه السلام كما روت أسطورة لا تخلو من طرافة[3].

---

(1) البخارى الطلاق حديث ٥٢٨٣.

(2) فتح البارى جـ١ ص١٦ حديث رقم١.

(3) من طريف ما يروي ان سليمان عليه السلام وثق في الهدهد بعد أن اكتشف ما اكتشف من أمر ملكة سبأ. فجعله في مخابراته. وكلفه يوماً أن يحصي له رجال ونساء المملكة. فغاب ثم جاء باحصائية تثبت أن عدد النساء يفوق بكثير عدد الرجال. فاستنكر الملأ وكذبوا. فقال الهدهد: لقد عددت مع النساء كل الرجال الذين يأتمرون بأمر النساء فزاد عدد النساء زيادة كبيرة. وهذه أسطورة بلا شك ولكني اوردتها لطرافتها ونبهت عليها.

هذه خلاصة التفتيق لنفسية زوجي السوء. وظني أن الصورة المبتذلة التي رسمت لحمالة الحطب ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ ربما عاضدت ذلك التحليل النفسي.

فهى بتسليطها على زوجها قد أهدرت رجولته. وغلت عنقه بالرسن "الحبل" ووضعت في أنفه الزمام، ثم سحبته على وجهه وجرته كما تجر الأنعام. والجزاء من جنس العمل. فلا عجب إذا عانت ـ بدورها ـ نفس المعاناة، وحشرت في الصورة التي ارتضتها لبعلها أو بغلها (البعل الزوج. والبغل الحيوان المعروف).

ولتسلطها عليه خصت بمزيد من عذاب مهين. فوق أنها اشتركت معه ـ ضمناً أو صراحة ـ في كل أنواع العذاب التي حاقت بالقرين المأفون (الضعيف الرأي، والعقل).

وطغيان المرأة، وتسلطها إلى هذا الحد جريمة متعدية تتجاوز الزوج إلى الولد. فالأبناء الذين ينشئون في أسرة ذابت فيها رجولة الأب وطغى سلطان الأم حتى استأثرت بالسلطة وعادت وفق قول الشاعر:-

فتلك أمك يعلو وجهها شنب وذا أبوك بفستان وخلخال

مثل هؤلاء الأبناء يْنمُون هدهدين، وَينْبـُتون ـ على غرار أبيهم ـ فاقدي الوزن عديمي الشخصية، وكذلك كان أبناء أبي لهب، يسبقون أباهم إلى هوى أمهم ـ أم جميل ـ أروى بنت حرب بن أمية ـ وكانوا ثلاثة أسلم منهم معتب، وعقبة، أما عتيبة فقد هلك كافراً، نهشه سبع.

والقرآن الكريم اذ يسجل قضية أبي لهب هذا التسجيل البليغ، يقدر أبعاد مثل هذه المواقف، وينظر إلى الجريمة باعتبارها متعدية تنذر بخلل يصيب أساس البنيان الاجتماعي.



ولقد أورد القرآن القصة في صورة معبرة، وعبارة منسقة، وإيقاع رصين فحسبتها أم جميل شعراً. روى البزار بإسناده عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ جاءت أم جميل. ورسول الله ﷺ جالس ومعه أبو بكر. فقال له أبو بكر: لو تنحيت. لا تؤذيك بشيء. فقال رسول الله ﷺ: إنه سيحال بيني وبينها. فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر فقالت له: هجانا صاحبك. فقال أبو بكر: لا ورب الكعبة ما ينطق بالشعر ورب الكعبة. فقالت: انك لمصدق. فلما ولت قال أبو بكر: ما رأتك ؟ قال: لا ما زال ملك يسترني حتى ولت.

حسبته شعراً لأنه يحمل بالجرس، ويزخر بالسخرية المزرية. والصورة ـ بهذا الإخراج ـ حرية أن تؤثر تأثيراً قوياً يحول بين المسلم وبين سلوك المسلك الذميم الذي يشي بالخبل ويقدح في الرجولة.

اللهبية الجديدة

لبثنا مع هدايات ﴿تَبَّتْ يَدَا .....﴾ نتملي[1] (بتشديد اللام المفتوحة) ونقتبس بوارق نفرغها على الليل البهيم، الذي تمطي بصلبه، وناء[2] بكلكله، وتعسَّف (بتشديد السين المفتوحة) فحجب بسدوله[3] المرخاة مدارك المسلمين. نفرغها ونحن نتمتم: - "ما آن لليل أن ينجلي" ومكثنا نسلط من حرارتها على أطباق الجليد التي تفعم[4] دنيا العرب لعلها تذوب فيسري الدفء، ويجري الدم، وتتاح الحركة، وتنبض من جديد القلوب.

---

[1] نتملي = نستمتع.
[2] وناء بكلكلة = ضغط بأثقاله.
[3] بسدوله المرخاة = بأستاره.
[4] تفعم = تملأ.



وبين وميض البوارق، وإشعاع السني[١] رأينا اللهيبة وقد أمست طابع العصر، وصبغة المجتمعات بعد ان كانت قبل استثناء وشذوذاً في الإنسانية، ولوثه مرضية تنتاب فتور التهافت، والتخبط والانحراف.

ورأينا اللهيبين زمراً، زمراً يخبون[٢] (بكسر الخاء وضم الباء المشددة) في مجتمعاتنا ويضعون ينطلقون هوجاً، صماً، بكماً، في الظلمات، ينشرون المذهب اللهبي، ويكسبون مع مغرب كل شمس أرضاً، ويحققون مآرب، ويسقطون (بضم الياء) ضحايا حتى عم بجهدهم التباب، وتكاتف الضباب، وزخرت الليالي بحمالات الحطب.

وأروى بنت حرب، حمالة الحطب قصر سلطانها على زوجها وبيتها، أما الحمالات المعاصرات فقد عظم سلطانهن، وطالت أحبالهن، واتسعت مجالاتهن، وتجاوزن الزوج والبيت إلى الشارع، والمنتدي، والديوان، والسياسة، والوزارة ...الخ وأخضعن بحكم الرغبة رقاباً ، وبوئن (بالبناء للمجهول)، باسم الفن ذرا[٣] ، وأهدرن باسم التقدمية قيماً، وخربن باسم الحرية بيوتاً، وتسللن من خلال أجهزة الإعلام إلى كل مناحي الحياة التي كانت ـ قبل ـ وادعة مستقرة. فأمست قلقة متوترة تغلي. وانبرت الأقلام المسمومة تبارك المخانيث والخنفسة، وتغري بالعهر، والفجر، وتتفنن كى تذكي أوار الجنس، وتذيب في أتون (بتشديد التاي المضمومة) الجنس والأنوثة الملتهبة ما تبقى من نخوة الرجولة، وشمخة الذكورة، وقيم الدين. ممهدة بكل ذلك لجيل القيامة جيل لُكع بن لُكَع كما حكت بعض الآثار.

واللكع (بضم اللام وفتح الكاف) كلمة فيها من معاني الذل والحمق والتسيب والتميع ما فيها. ولقد جاء في الصحاح عن أنس رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : " إن من إشراط الساعة أن يرفع العلم، ويكثر الجهل،

---

[١] السني= الضوء.

[٢] الخبب : والوضع أو الإيضاع أنماط من السير. وهما كناية عن الانطلاق المطلق "والحنجلة".

[٣] جمع ذروة.

والزني، ويشرب الخمر، ويقل الرجال ويكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة قيم[1] واحد". وفي مسلم عن ابن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ "لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق"[2]. واللكعية، أو اللهبية منبت الخنا، ومستنقع الشر، ونذير التحلل والدمار. وأجهزة الإعلام ـ وهى تستهدي مدارس الاستشراق، والتبشير، والتغريب ، وهى تستقي من مستنقع الماسونية، والروتري، وتنتهج نهج "بروتوكلات صهيون" ـ رحات تثير الغرائز وتمجد الخنا وتحدو إلى الضلال وتتغني بالعهر حتى بدأ الرقص فضيلة، والجنس حرية، والقبح فنا، والعرى تطوراً، والتبرج تقدماً، وغدت الرجولة بما تحمل من نخوة، وشهامة، وغيرة، وقوامة رجعية وتبلداً. وغدا الدين بكل قيمه ـ في نظرهم ـ عامل تخلف، وارتدادا حضارياً، وغفلة لا تغتفر. فلا غرو إذا انطلقت الأنثي في حمى تلك القوى متمردة مارجة كالنار، وانطلق الذكران وراءها مخدرين يتشممون، ويلعقون، ويبصبصون [3]. وهكذا طوتنا اللهبية الجديدة واحتوانا الخدر وانصرفنا عن الجادة الأصيلة إلى جواد تعج بالشياطين وتموج بالهوان والخزي.

قذائف الكلم

والسورة الكريمة بكلماتها المتفجرة مضت مدوية، عبر الإسماع والأفواه. ومرقت في صليل مثير ترعد، وتبرق، وتنفذ إلى زوجي السوء تصعق : وتحطم الكيان.

---

[1] أى يقوم بشئونهن لا أنه يتزوجهن،البخارى كتاب العلم حديث٨١ مسلم كتاب العلم حديث٩ من الكتاب.

[2] البخارى كتاب الفتن بلفظ "من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء" حديث٧٠٦٧ مسلم حديث٢١٦٦ كتاب الفتن.

[3] بصبص الكلب = حرك ذنبه .

ولقد أصمت[١] السورة بالطلقة الأولى ﴿تَبَّتْ﴾ فهى مشحونة تعتمل فيها معاني الخسار والضلال : والهلاك، والأصفار من كل خير. والقرآن إذ يختار هذه الكلمة التي تموج بالحمم ، وتقذف بالويل يأتي بها موافقة لمقتضى حال امرئ ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ[٢] ﴾ ، ﴿هَمَّازٍ[٣] مَّشَّاء بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ[٤] مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ[٥] بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾القلم١١: ١٢. ولقد أحدقت هذه المثالب بأبي لهب كما أحدقت بالأخنس بن شريق، وبالوليد بن المغيرة. فلا عجب إذا تعرض ثلاثتهم لحملة قرآنية عنيفة تقصم الظهور، وتسم بميسم الذل مجلي النعم (اليدين) ورمز التطاول والعز (الجيد) وموضع الآنفة والشمخة (الخرطوم)[٦].

ذلك ما تعكسه آيات سورة القلم ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾. ﴿هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ. مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ. عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ[٧] أن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ. إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ. سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾[٨].

وذلك أيضاً ما تعكسه آيات المدثر ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا. وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا. وَبَنِينَ شُهُودًا. وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا. ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ. كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا. سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا....﴾المدثر١١: ١٧ الخ وهذا صنيع القرآن بزوجي السوء. وهكذا يغل الجميع في سلسلة متشابهة الحلقات. ويتقدمون أمثالهم فيوردونهم النار وبئس الورد المورود.

---

(١) أصمت : فشلت الحركة.
(٢) حقير الرأي.
(٣) عياب.
(٤) شحيح الخير .
(٥) جاف غليظ .
(٦) الأنف.
(٧) دعي لصق في النسب شرير .
(٨) وعيد بالذل .



وتباب اليدين قبل تباب النفس يبرز المذموم أشل عاطلاً كلا (بفتح الكاف وفتح اللام المشددة) يسري في أوصاله دبيب الموت وتنوشه أسباب الفناء. فهو وفق الصورة التي رسمها النواسي وهو يتحسر على نفسه:

دب في الفناء سفلاً فعلوا وأراني أموت عضواً فعضوا

والكلمة ﴿تَبَّتْ﴾ في تعلقها بالجوارح مرة ﴿تَبَّتْ يَدَا .....﴾ وفي تعلقها بالذات مرة أخرى ﴿وَتَبَّ﴾ تنبىء عن الخسران المبين في نفسه وذاته. وفي سعيه وكسبه وكل أمواله التي أطغته وغرته. واليدان آلة الكسب وعدة العمل. وتبابها المبكر بقطع الأمل. ويفرض العجز ويجعل الفقر في قلبه وبين عينيه. وهما عدة الظلم والعدوان والدفع وتبابها بشارة للنبى وإيحاء بالأمن. ونذير شؤم لأبي لهب ينعى إليه مستقبله. "فإذا جاء التباب الشامل بعد ذلك لم يجد ما يدفع به. ولم يجد من يذود عنه، ولم يجد ما يفتدي به" ﴿ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾ من جاه وولد وأختان[1] وإشهار...الخ مما كان بعدها للنائبات. ويحتسبها للملمات وصدق الله ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا﴾ الفرقان٢٣ والكلمة ﴿تَبَّتْ﴾ صادرة عن المولي. وأمره إذا أراد شيئاً إن يقول له كن فيكون. وإيحاء بحتمية الوقوع وتحقق الوعيد عبر القرآن بصيغة الماضي التي تقطع بالوقوع وتتحدى كل القوى التي تعاضده. وصيغة الماضي استخدمت كذلك في ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ ....﴾ لتنذر بضربة عاجلة توشك أن تصيبه فتجرده من زينته. فليحكم لأمته[2]، وليجمع ناديه، وليعد كيده، وليدفع عن نفسه أن استطاع ولقد فطن أبو لهب إلى ما وراء هذه الكلمات من تحد سافر فصاح:- إن كان ما يقول محمد حقاً فإني احمي نفسي بمالي وولدي.

---

[1] أختان بفتح الألف كل ما كان من قبل المرأة مثل الأب والأخ.

[2] اللأمة = الدرع

وكما أمضي عمره أسير أنثى تأتي نهايته على يد أنثى. فقد روى أنه حين سمع خبر بدر ثار وفقد السيطرة على أعصابه واعتدى على غلام العباسي (أبي رافع) وظل يضربه ويثاوره[(١)]، ويحتمله فيضرب به الأرض- وكان أبو رافع رجلاً ضعيفاً ـ فاعترضته أم الفضل ـ لبابة بنت الحارث. أخت ميمونة أم المؤمنين ـ وشجت رأسه بعمود من عمد الحجرة. فقام مفلوق الدماغ يجر رجله ذليلاً. ورماه الله بالعدسة[(٢)] وترك ـ مخافة عدوي العدس ـ بلا دفن ثلاثة أيام حتى أنتن. ثم احتمل إلى أعلى مكة. واسند إلى جدار ثم رضموا[(٣)] عليه بالحجارة.

والسورة ـ إثارة للنشاط ـ تنوع في الأسلوب، وتنتقل إلى صيغة الاستقبال في ﴿سَيَصْلَى نَارًا﴾ والصيغتان تلفان أولاه ،وأخرته، وتبرزانه متدحرجاً في درك الخسار عاجزاً عن تمالك أمر نفسه. وعن نجدة زوجه التي بدت في الصورة ـ بجانبه ـ ذليلة ممتهنة تتقلد حبلاً من ليف بدل الحلى من قلائد وعقود ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾.

وهذه الصورة التعبيرية الحافلة بالإيحاء، الناطقة بالابتذال والامتهان، اللاهثة طى الأثقال والأغلال... تشى بنفسية العوراء، فهي برغم محتدها، تنزع إلى الخسة، وتدنو من وهدة العقد ـ عقد الأرقاء ـ وتمارس حرف "جمع حرفة" الأماء. وذلك لأن الاحتطاب كان ـ يومئذ ـ حرفة العجزة، وشأن الخاملين. وحديث رسول الله ﷺ "لن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب..."[(٤)] يوحي بأن ذلك أخر الدواء، ونهاية المطاف. فإذا أخرجت أم جميل هذا المخرج وبرزت في أسمال النهاية والهوان على مرأى ومسمع من الصب المستهام فما أحراه أن يتمزق كمداً،

---

(١) المثاورة = المصارعة

(٢) العدسة بثور كبثور الجدري تنتشر في البدن وتتعفن وتقتل .

(٣) داروه بالحجارة.

(٤) البخارى حديث ١٤٧٠ كتاب الزكاة عن أبى هريرة رضي الله عنه أطرافه ١٤٨٠، ٢٠٧٤ والمسافاة ٢٣٧٤ وفى رواية عن الزبير رضى الله عنه كتاب الزكاة ١٤٧١ وكتاب البيوع ٢٠٧٥ والمساقاة ٢٣٧٣.

ويخور حتى يخور[1]، وما أحراها أن تذوب خجلاً وتتوارى فلا يسمع لها جرس. ولا يحس لها بعد هذه الصفعة دبيب. كيف وقد انحطت إلى درك الحيوانية، وجرت كالنعام؟

وحمالة الحطب ـ كالكلمات الأخريات ـ ترمي بالشرر، وتشي بامرأة نارية توقد وتوغر وتحرش وتسعي بالنميمة وتؤرث نار العداوة بين الناس. ومثلها يعيش عبئاً ويروح ويغدو كنافخ الكير "إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة".

والصورة بكل أبعادها إما أن تكون منتزعة من دنياها فهي كانت تحرص على أن تضع في طريق محمد عراقيل مادية من عضاه، وأشواك، وأقذار تطرحها على دربه وحول بيته، وصوب بابه كما كانت تحرص على وضع عراقيل معنوية في طريق الدعوة فتنشر الشائعات وتلفق الأكاذيب، وتوغر الصدور، وإما أن تشى بآخرتها فهي بلا شك ستبعث يوم القيامة حاملة أوزارها وأوزار من أضلتهم على ظهرها وهى بلا شك ستسلك في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً. وعلى أى حال فإن الصورة تعكس شح نفسها وتوحي بالحقارة والذل والمعاناة الأليمة. وهى في شناعتها وفظاظتها تبلغ مبلغ قوله سبحانه ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾الحجرات١٢ . فما أثقلها على امرأة تدعى السيادة والشرف وتتطلع إلى أن تتبوأ مقعد السيدة الأولى على مدارج أموية وفي حمى مبادئ لهبية يؤجحها دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه في النار ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهَّ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾الأنعام٣٢. وتتضاعف الحسرة ويعظم الخسار ويتفاقم الخطب وصدق الله: - ﴿لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ

[1] يخور الأولي من الخوار وهو صوت البقر ونحوها. والثانية من خارت قواه إذا وهن وسقط.

عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ﴾النحل٢٥. ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾النحل٢٦.

الإسلام دين العدالة

علمتنا نفحات سورة المسد أن الإسلام دين العدالة، والمساواة، والفرصة المتكافئة التي تسع الناس جميعاً، وأنه يرفض المحاباة، والمحسوبية في شتى صورهما. وان أصول وفروع المصطفين الأخيار لا تكفل لهم لحمة النسب مكانة أرفع أو أشرف من منازل الذين يفوقونهم أو يشتركون معهم في درجة عملية واحدة. وذلك لأن العمدة في الإسلام رحم الدين. وروابط الإيمان ومنازل التقوى.أما نفخة النشب (المال) وشمخة النسب. وسكرة الحول والطول فهي في نظر الإسلام صرح من دخان. وصدق الله:- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آَبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾التوبة٢٣، ٢٤.

المعول عليه إذن في الإسلام هو الإيمان وما يقتضيه من حب لله ورسوله لا يداني. وما يفرض من جهاد شامل وحركة وتضحية بكل غال ونفيس. والملتزمون بهذه القيم، الناهضون بهذه الأعباء هم بحق الذين آمنوا، وعملوا الصالحات، وهم الذين يتلقون عوائد تضحياتهم أمناً وسكينة ومودة رخية طيبة ﴿إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾مريم٩٦. وهذه الحقائق الإسلامية البينة يجحدها موتورون، ويجهلها حمقى موزورون يستوحون الشياطين ويغلون في الدين. وأولئك وهؤلاء يشغلون شمال إبليس. وإبليس كلتا يديه شمال.

ومن أقصى اليسار حيث سلطنة إبليس، وحيث مرتع جنده، ومربض عبيده انبعثت أصوات تجمعها الغواية والضلال. وتختلف في الدوافع والغاية والانفعال.

وتختلط الأصوات في جوقة شيطانية لتنكر ما جاء في النفحات من أن أوثق عرا الإيمان الحب في الله، والبغض في الله، والموالاة في الله. وان الود في الإسلام زاد المؤمنين وقرى (بكسر القاف) رب العالمين. يشيعه فوق رؤوس المتقين رخياً شذيا في الدنيا والآخرة.

والأصوات التي تقذف بها حناجر الأعداء لتتلقفها حناجر الأدعياء تتشدق بأدلة مشتركة، وتتعلل بكلمات "**الآل، والأهل، والمودة في القربي**" وتتلاقي برغم ما بينها من تباين في المذهب، وتباعد في الهدف، واختلاف في العقيدة. قالوا :

١. إن المسلمين يمجدون في صلواتهم آل محمد.
٢. وان القرآن يخص أهل البيت بخطوة فريدة ويميزهم عن غيرهم بقوله : ﴿يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أهل الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾الأحزاب٣٣.
٣. وأن الله أمر نبيه ﷺ أن يدعو إلى محاباة ذوى قرباه، وخصهم (بتشديد الصاد المجرورة) بالود نظير ما جاء به من دين وخير ﴿لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىَّ﴾الشوري٢٣.
٤. ومقتضي هذا ـ عند العداء ـ أن الإسلام يقر العرقية (بكسر العين نسبة إلى العرق) والتفرقة العنصرية، والمحسوبية.
٥. ومعناه عند الأنبياء ـ من متصوفة، ومخرفة، وشيعة أن أدنى ارتباط عرقى برسول الله ﷺ يدني من الله سبحانه، ويمنح الأفضال، ويهب

الخوارق، ويعطي حق الحل، والربط، والتصرف في شئون الخلق، وحق المنح والحرمان، والإغداق على المحاسيب المعاتية.

٦. والنتيجة أن يسعد الشيطان، ويظل المسلمون في سبات عميق جاثمين مربوطين بالأضرحة بعيدين عن الحياة، وعن سنن الله. قانعين بالوهاد، والإلحاد وغيرهم يحلق في الفضاء، ويتطلع إلى السماء، ويحط على الكواكب، ويطلق الأقمار.

٧. وتكمل بهجة الشيطان إذ ترقص أجهزة الإعلام المتأثرة "بماسون" و"صهيون" هذه الرقصة المقبوحة المرذولة مع الحمقي والمأفونين (المأفون الفاسد العقل) ولقد رأينا كيف أفردت جريدة سيارة صفحة كاملة لمجاذيب السيدة ومحاسيب الحسين بشكل يغرى بالشرك، ويربط بالقبور، ويقصي عن الجادة والطريق المستقيم[1].

والإعلامي الذي يرقص هذه الرقصة ويبتذل قلمه ونفسه، ويهلل للوثة التي تعتري عقول قومه في عصر "الكمبيوتر" هو بلا شك يريد أن يبرق إلى الأعداء ببرقية مفادها "اطمئنوا. نحن فقط في سبات عميق" وهو بلا شك يقدر وقع مثل هذه البرقية على نفوس المستعمرين. فلقد كان الإنجليز ـ إبان استعمارهم للبلاد ـ يهتمون اهتماماً بالغاً بزوار البدوي. وكلما زاد عدد رواد الموالد ابتهجوا واطمأنوا فإذا اهتز المعيار وقل العدد توتروا وقلقوا خشية أن يبعث الرقود ويعي الغافلون. ولقد روى أحد الذين كانوا يرفعون إلى المندوب السامي الإحصائيات التي تتناول عدد الرواد أن "لامبسون" حين رفع إليه عدد حطم الأرقام القياسية التي كانت مسجلة... وقف وصاح بلا شعور "برافو".

---

[1] أنظر جمهورية الخميس ١٩٨٣/٣/٢٤م.

فهل ترانا نبالغ إذا قلنا على ضوء هذا : - إن الإعلامي الذي يروج لهذا الخبال إنما يقدم كشف حساب للسادة ؟ هكذا (تنقض)عرا الإسلام بفعل جاحد سُبَتْه رقى الشيطان، وبهرته زيوف الحياة، وانطلت عليه ألاعيب الأعداء، ودعاوي الماديين فتنمر، وتنكر وانسلخ من مقومات دينه فعاد عامل تشكيك وهدم وتغرير.

ويفعل غر جامد تقوقع طى أغلفه إبليس، وجرف أصم، أعمى إلى مرافىء شركية هاوية وركن إلى دعاوي بالية، وآمن بقضايا نابية عن قيم الإسلام وجوهر الدين، وراح يختلق قيماً ويتخذ أرباباً، ويصطنع أغوائاً، وأوتاداً، وشفعاء من دون الله.

وبين أولئك وهؤلاء عاد الدين غريباً كاسف المشاكي قلق الذبالة[1]، متكسر الأضواء. ولا عجب فالدين ـ وان كان معاني مجردة ـ لا يبدو في صورته المؤثرة ونضرته المزدهرة إلا من خلال المنتمين إليه، فهم الأوعية التي تتشكل وفقها القيم. فان كانت الأوعية باهتة أو كاسفة، أو معوجة أو متعرجة أو متكسرة مشدوخة أخذت المعاني المجردة شكل الأوعية فاعتراها الخسوف، والكسوف والاعوجاج والمسخ. ومن هنا تحتمت القدوة، ولزم تخلق الدعاة بمثل القرآن وقيم الشريعة الغراء التي يدعون إليها، وإلا كانت الغربة، وكانت المزالق، والشطط، والانفصام البين بين المسلم وعقيدته ومنهجه، واتقاء هذا اهتم القرآن بالتبين، والتصريف ـ والتفصيل. وعنى الإسلام عناية فائقة بالتقويم، والتحديد والتدبير بان يقيم الوزن بالقسط ولا يخسر الميزان.

وابتغاء هذا جاءت سورة المسد ﴿ تَبَّتْ يَدَا.... ﴾ تطبيقاً مبكراً لبعض قيم الإسلام، وبعض مبادئه القويمة الرشيدة التي تتحرى العدالة، وترفض المحسوبية، وتفرض المساواة، وتقرر أنه لا أمل بلا عمل.

---

[1] الذبالة : فتيلة الشمعة ونحوها.

الإسلام حب سماؤه، وأجواؤه، وأرضه

١. حب متبادل بين الخالق وصفوته من خلقه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾المائدة٥٤.

٢. حب تتجاوب أصداؤه بين السموات والأرض مصداق ما روى مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ انه قال :" إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: إني أحب فلاناً فأحبه، قال فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول : أن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في أهل الأرض، وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول : إني أبغض فلاناً فأبغضه، فيبغضه جبريل : ثم ينادي في أهل السماء : إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه، قال: فيبغضونه، ثم يوضع له البغضاء في الأرض"[1].

٣. والحب العلوي الذي ينتظم أفئدة المؤمنين يرقى بأصحابه محملاً (متجاوزاً) مقامات جل الأعمال المقربة إلى الله. روى الإمام أحمد بسند صحيح عن أبي ذر رضى الله عنه قال : خرج علينا رسول الله فقال: أتدرون أى الأعمال أحب إلى الله؟ قال قائل الجهاد. قال النبي ﷺ : "أن أحب الأعمال إلى الله الحب في الله، والبغض في الله" ولا عجب فالمتحابون بجلال الله يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله[2] مسلم.

٤. وانفعال الحب العلوي يورث التداني، وتفقد الأحوال بالتزاور ويقتضي التباذل، والتعاون والنصيحة. وبمثل هذا نستوجب محبة الله، ونستنزل

---

[1] البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه بدء الخلق ٣٢٠٩ وفي الآدب٦٠٤٠ وفي التوحيد٧٤٨٥ مسلم كتاب البر والصلة حديث٢٦٣٧ واللفظ لمسلم.

[2] البخارى كتاب الجماعة والإمام حديث٦٦٠ مسلم كتاب الزكاة حديث١٠٣١ أطرافه في البخاري١٤٢٣ زكاة ٦٤٧٩، ٦٨٠٦.



رحمته وفق ما روى مالك بإسناد صحيح عن معاذ بن جبل قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله تعالى : وجبت محبتي للمتحابين في، والمتجالسين في، والمتزاورين في والمتباذلين في"[١].

٥. والحب العلوى يبلغك معية النبيين، والصديقيين، والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. "عن انس رضى الله عنه أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: متى الساعة ؟ قال : لا شيء غير إني احب الله ورسوله. قال: أنت مع من أحببت. قال أنس: فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بها"[٢] **متفق عليه.**

٦. وحب الله ورسوله يحتدم عاطفة، ويمتلىء حرارة، ويتجلى حركة وعملاً. والحب الذي لا يجاوز الحس، ولا يترجم إلى عمل حب مزعوم بارد. وارتقاء بهمة المسلم أن يرضى بحب عقيم يدفعنا رسول الله ﷺ إلى مباشرة أسباب الحب، وممارسة مظاهره التي ترضى الخالق وتقنع الخلق. "روى مسلم عن أبي هريرة ؓ: لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنون حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم : أفشوا السلام بينكم"[٣] "روى الترمذي وابن ماجة عن سهل بن سعد قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال:- دلني على عمل إذا عملته أحبني الله، وأحبني الناس. قال ﷺ :ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس"[٤].

---

[١] الموطأ كتاب الشعر حديث ١٦ ص٥٩٢ طبعة الشعب المسند جـ٥ ص٢٣٣، ٢٣٧، ٢٣٩ من حديث معاذ.

[٢] البخارى كتاب فضائل الصحابة حديث٣٦٨٨ أطرافه في الأدب٦١٦٧، ٦١٧١ والأحكام٧١٥٣ مسلم في كتاب البر والصلة والآداب حديث١٦٣٢ من الكتاب.

[٣] مسلم كتاب الإيمان حديث٥٤ مسلسل.

[٤] الترمذى وابن ماجه والطبرانى والحاكم والبيهقى قال : المناوى فى سنده خالد بن عمر ومحمد بن المصيص ضعفه أحمد وقال السخاوى : خالد بن عمر مجمع على ضعفه للمناوى جـ١ ص٤٨١ حديث٩٦٠ فيض القدير.

٧. والحب بهذه المفاهيم نعمة جلى (بضم الجيم وتشديد اللام المفتوحة) ومن ذكر الله وشكره أن تتحدث بنعمته ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ الضحى١١. والله تباركت ألاؤه ـ تعليماً للعباد ـ يخطر عبداً من عبيده بأنه سبحانه يحبه جزاء صدقة المودة وحبه أخاه في الله "عن أبي هريرة أن رجلاً زار أخا له في قرية أخري، فأرصد الله له على مدرجته ملكاً. قال أين تريد؟ قال أريد أخاً لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربها(تصلحها وتنميها) قال: لا غير أني أحببته في الله، قال فأني رسول الله إليك بان الله قد أحبك كما أحببته"[١] مسلم.

٨. وتأديباً بهذا الأدب الرباني يقول الرسول ـ فيما يرويه أبو داود، والترمذي بسند صحيح عن المقدام بن معديكرب ـ يقول: إذا احب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه"[٢].

٩. والحب الذي لا يورث الخير ولا يثمر المعروف حب شكلي آسن (راكد) كحب المتمسحين والمتشنجين في المقاصير وحول المشاهد، والقباب "روى البيهقي عن عبد الرحمن بن أبي قراد عن النبي ﷺ توضأ يوماً فجعل أصحابه يتمسحون بوضوئه قال لهم: ما يحملكم على هذا؟ قالوا حب الله، ورسوله فقال ﷺ: من سره أن يحب الله، ورسوله، وان يحبه الله، ورسوله فليصدق حديثاً إذا حدث، وليؤد أمانته إذا ائتمن وليحسن جوار من جاوره"[٣].

---

[١] مسلم كتاب البر والآداب والصلة حديث٢٠٥٦٧.

[٢] مختصر سنن أبى داود للمنذرى جـ٨ ص٢٠ حديث٤٩٦١. والترمذى فى الزهد والمسند.

[٣] مشكاة المصابيح حديث٤٩٩٠ قال الألبانى فى الهامش حديث حسن وكرره ابن حجر فى ترجمة عبد الرحمن بن أبى قراد الأنصارى. وقال فى اسناده: الحرف بن أبى الحرث ابن أبى جعفر وهو ضعيف وقد خالفه فيه ضعيف آخر الاصابة جـ٢ ص٤١٩ اسم٥١٨٥ مع العلم أن حسن الجوار من الإيمان فمن أحب الرسول ﷺ يحسن للجيران والحديث لذاته ضعيف أ. هـ أى صحيح لغيره .

هذا هو الود الذي ينبغي أن يعمر أوساط المسلمين، ويتدفق كالدم في الأوصال المسلمة التي تربى الأمة وتحيط بكل المجتمع المسلم بلا محاباة ولا تفريق، وتلك روافده وأثاره فأين من مثل هذا محاسيب الحسين، ومجاذيب السيد والسيدة ؟

على ضوء هذه الآثار التي تنطق بان المؤمن وعاء ملء حباً وان أرضه الطيبة تنضج بالود، وان أفاقه المشرقة تجود بالمحبة والخير على ضوئها نسارع فنعلن أننا لا نبتغي في موضوعنا هذا أن نحجر أو نضيق من رحابة الحب كى نقصر على قوم ونضن به على آخرين بل نظن أن الحب ورد من موارد الرحمن، وان المؤمنين فيه شركاء وأن نصيبهم من الورد يتناسب تناسباً طردياً مع حظهم من الإيمان إذا زاد زاد، وإذا تناقص الإيمان نقص حظهم من الورد.

والإسلام لا يفسر مذهب شاعر الجاهلية الذي زعم أن لذويه بحلم عرافة الأصل وشرف النسب أن يخصبوا أمنهم بالصفو الزلال ويتركوا لمن خلفهم الكدر والطين يلغون فيه:

ونشرب ان وردنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كدراً وطينا.

والمؤمن ـ أيضاً ـ لا يبغض إلا في الله. ولا يحقد حقد أبى جهل حدساً ونفاسة، وشحاً وهوي، فإذا خص بالكراهية فرداً أو عصبة لمجرد أنها تعتري إلى معدن خير، أو عنصر مجد، أو موئل عز كان دعياً، بعيداً عن حقائق الإسلام.

فإذا تحرك ـ بضغط ما يحمل من حقد ـ ليعصف أو يظلم كان حرياً أن يموت ميتة جاهلية، وإذا كان سر الحقد، ومبعث النار مجرد أن القوم منهم رسول الله ﷺ كان الأمر أجل وانكي. ولا أخال أن مسلماً ينحط إلى هذا الدرك.

والإنسان يجب أن ينتسب ـ ان صدقا وان كذباً ـ إلى أصل مؤثل ومحتد كريم. وفي طبعه الاعتداد بذاته، وأجداده. ونزعة المباهاة، والتغني، والتعالي

أصيلة فيه متمكنة منه. وكلمة ﴿أَنَا﴾ أقرب إليه من كل كلام. وهو ـ منطوياً في أنانيته ـ طوراً يصيح ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾الكهف٣٤. وتارة يصرخ ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾القصص٧٨. ومرة ينعق ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ الزخرف٥٢. والقرآن الكريم طالما تابع هذا الداء، ونفذ إلى أغوار هذا الإنسان يشرحه حتى تبدو فقاره وصدق الله : - ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاء الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ﴾فصلت٤٩ ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ، وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى﴾فصلت٥٠.

والإسلام كان لابد له من أن يواجه هذه النزعات الطينية التي غذتها قيم الجأهلية الأولي. وان ينقض القواعد التي أرستها الحمية وروتها العصبية، وزكاها التخلف الحضاري.

ولقد اهتم الإسلام ـ في مواجهة النزعات المتمردة ـ بنفي مفاهيم كانت سائدة مستشربة. وقام الإسلام في هذا المجال بعمليات متداخلة كان لابد منها لمن يريد أن يبعث أمة وينشئ دولة موطدة الأركان:

١. نزح الأفكار الفجة التي ولدها التخلف والجهل، والمعارف السقيمة التي أمدهم بها المكره أهل الكتاب.

٢. تقليب الأرض حتى تطيب وتتهيأ لاستقبال هدى الله.

٣. بذر بذور الإيمان، وغرس حقائق، ومعارف تكفل المسيرة الصحية، والنفس الطويل.

٤. المتابعة المستمرة، ومقاومة الآفات التي قد تعرض للمسيرة فتقضي إلى كبوة، أو نكسة.



فما الأباطيل التي نقضها الإسلام؟ وما القيم التي غرسها؟ وما علاقة كل هذا بالآل، والأهل، والمودة في القربي؟

لُحمة المحبة

تعاطفاً مع نفحات ﴿تَبَّتْ يَدَا .....﴾ وتطلعاً إلى الهدايات المنبثة من الآية٢٣الشورى ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ والآية٣٣ الأحزاب ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أهل الْبَيْتِ﴾ ومضينا ننشد أغوار الآيتين، ونبحث عن الأسرار الكامنة وراء عبارات التشهد الأخير "اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد...."

وهدفنا فضح فري[1] الأعداء، ورفض ما يهدف به أدعياء يغطون في النوم، والكون كله دوي، وهدير، وأزيز، وزمجرة، وصراخ، وآهات، ويهوون إلى غيابات الموتي السحيقة في عصر يرصد أهله مركبة فضاء أمضت أحد عشر عاماً تطوي الفضاء إلى غايتها. ومرسلوها يرقبون سيرها، ويدرسون أمرها، ويستقبلون منها إشارات تثير الدهشة وتنم عن المجاز الملكوت.

وعلمنا ـ يومئذ ـ أن أفاق الإسلام المشرقة تنبض بالأخوة، وبالمودة، وتنشر ألوية الرحمة فوق رؤوس العالمين، وكل العالمين.

وتبين أن الإسلام حتم أن تتفشى المحبة، وتسري من أفق إلى أفق، ومن قلب إلى قلب لاحمة داعمة، مطيبة الأنفاس، والأردان.

والمحبة في الإسلام علوية، تهمي من السموات رحمة، وتنتشر على الأرض نوراُ، وتنفذ إلى القلوب المؤمنة فتورثها رقة، وتشد بعضها إلى بعض.

وتقديراً لهذه العاطفة، وإشادة بآثارها امتن الله بها على المؤمنين إذ قال ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾مريم٩٦.

---

(1) فرى : جمع فريه، والفرية الكذب .

والناس على الأرض يعيشون طى غازات خانقة تتصاعد من الحمأ المسنون فتصيب بالتوتر، وتتركهم متناقضين تكـذب ظـواهرهم بـواطنهم، وبـواطنهم ظواهرهم.

وكلما أشتد بعد الناس عن الله، اشتد اخلادهم إلى الأرض جلت تناقضات التي تعمل في أعماقهم فأضحت عارمة تلفح، وتحرق، وتباعد ما بين الناس حتى يغدوا مصداق قول الله : ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ الحشر ١٤ .

والمرء حين يعلو بوده يفر من غبش المتناقضات، ومن حمى الصراع المحتـدم بينها إلى حيث السني، والسناء، والصفاء.

فإذا آبت المودة ـ بعد عروجها ـ إلى الأرض، آبت مظهرة من شتى الشوائب التي تعلق بها كما يعلق الزبد بالذهب.

فإذا سرت بأرواحها العلوية عبر القلوب زكت، وأثرت، وأورثت التراحم، والمشاركة الوجدانية. ومهدت لوحدة الشكل، والموضوع.

نداء الرحم

والمودة بشذاها العلوي تعلق ـ في حال مسراها ـ بالأقرب إلى الله فالأقرب، وتنفذ من الملأ الأعلى إلى صفوة أهل الأرض، إلى أولى الأرحام ثم إلى....

ومن هنا كان اهـتمام الإسـلام بـالرحم باعتبارهـا النـواة التـي تتفتـق ـ إن روعيت ـ عن الأصالة ، والمؤازرة وباعتبارها الأساس الذى تشاد فوقه الأواصر وتقام المجتمعات . فوق أن نداء الدم والرحم صوت الفطرة والإسلام بحكـم كونه دين الفطرة ينصت لصوت الفطرة ويتـولى أمرهـا بالتهـذيب والتشـذيب والأعلاء حتى تعود سوية مبرأة من علل الجبلة ودخن البيئة:

أ) ومن مظاهر ذلك الاهتمام: ما رواه البخارى عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : أن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ من خلقه قالت الرحم : أن هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال : نعم أما ترضين أن أصل من وصلك واقطع من قطعك؟ قالت : بلى يا رب قال فهو لك قال ﷺ فاقرءوا أن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾محمد٢٢.[1]

ب) وما رواه مسلم عن أبى هريرة أن رجلا جاء إلى رسول الله يشكو بعد ما بين ذويه وبينه من حيث البر. وأن رسول الله حمد له صنيعه وسكن جأشه وأغراه بالاستمرار فى الإحسان "جاء رجل إلى رسول الله وقال: أن لى قرابة أصلهم ويقطعوننى وأحسن إليهم ويسيئون إلى وأحلم عنهم ويجهلون على فقال : لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المل[2] ولا يزال معك من الله ظهير عليهم مادمت على ذلك"[3].

ج) وما رواه احمد عن أيوب قال: قال ﷺ: إن أفضل الصداقة على ذى الرحم الكاشح[4].

د) وما ورد به أن رسول الله ﷺ دعا على قريش بالقحط فاستشفعوا إليه بالرحم فرق ودعا لهم بالخصب وفاء بحق الرحم التى يصلها بحقها. ولا عجب فالله جل جلاله يعافى ويرزق المشركين الذين يدعون له الصاحبة والولد. إن المؤمن يسع ببره الناس مهما كانت هويتهم ونزعاتهم فكيف إذا كانوا ذوى رحم؟ إن الله الذى لا تحد رحمته تكرم فاشتق "للرحم" اسما من اسمه

---

(1) البخارى كتاب التفسير سورة محمد حديث٤٨٣٠، ٤٨٣١، ٤٨٣٢ كتاب الآدب ٥٩٨٧ كتاب التوحيد٧٥٠٤.

(2) المل: بفتح الميم وتشديد اللام: التراب الساخن المتخلف من المواقد.

(3) مسلم كتاب البر والصلة حديث٢٥٥٨.

(٤) الكاشح: المعادى هذا وروى الطبرانى وأحمد نحوه باسناد حسن عن حكيم بن حزام.

وحرك الرحمة التى أودعت قلوب الإناسى ووجهها أول ما وجهها صـوب الرحم كى يقضى- بهـذا أمـرا كـان مفعـولا. والقلـوب التـى تحـرم الحـب وتستعصى على هذا التوجيه الكريم قلوب ذئاب وما أكثرها.

كثير من بنى الدنيا ذئاب كستهم حكمة القدر الثيابا

حس الداعية

والدعوة إلى الله تقوم على الإنذار والتبشـير وكـلا الأمـرين يتطلـب حسـا مرهفا يلتبس بالمشاكل والمصائر ويعيش مشاهد القيامة منفعلا متأثراً بها تأثر من يراها عين اليقين.

وبهذا الوجدان الخير الحساس يتعامـل الـداعون مـع الأمـم ويشـاركونهم مشاركة وجدانية فيما يرجى من خير أو يحذر من شر وحينئذ يتفانون في التبصير والتحذير والإمساك بالحجز عن النار وينعمون وهم يدعون إلى الخير ويحـدون إلى الجنة والنعيم المقيم.

وبهذا الوجدان الخير الحسـاس يحبـون وبـه أن حـم " بالبنـاء للمجهـول" القضاء يمقتون.

ورسول الله ﷺ كان من كل هذا فى الذروة.

وفؤاده الرحب الرفيق كان يكاد ينفطر أسى كلما أبصر الشراذم الضالة وتصور المصير المحتوم يستبقونه مهطعين مقنعى رءوسهم.

والقرآن الكريم كثيرا ما أمسك بزمام الرسول ﷺ حتى لا يجمع بـه الحـس ويبلغ منه الأسى كل مبلغ كان يرده ويحد من أساه بمثل قوله سبحانه ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾الكهف٦. وبمثل قولـه: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾الشعراء٣. وقوله: ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾فاطر٨.

وبهذه المشاعر الفياضة أقبل رسول الله ﷺ على أمة الدعوة. وبها اقبل على آله وأهله وعشيرته وذويه ولم لا ؟ أليس بشرا مثلنا يحن ويحنو ويحب ويحس بمعانى الاخوة ولواعج الأبوة وأرواح لأهل ووشائج القربى كما نحس؟ فما بال أولئك الذين يريدون سلب أنبل ما تنطوى عليه وإلا كان محابيا متورطا فى المحسوبية؟ وما بال هؤلاء الذين يغلون حتى جاوزوا برسولهم أقطار العدالة والمساواة؟

من عواطف المرسلين

والرسول ﷺ لم يكن في مشاعره الفطرية بدعا من الرسل فقد حن المرسلون من قبله إلى الولد وارتبطوا بالأهل وتمنوا لهم الخير وجدوا ـ بتشديد الدال ـ كى تتوفر لهم أسباب الأمن فى سبل السلام.

نوح عليه السلام يهتف بابنه منطلقاً من عاطفة الأبوة ﴿ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا﴾ هـود٤٢. حتى إذا أورده كفره موارد الهلكة وحال بينهما الموج فكان من المغـرقين اندفع نوح مع عواطف الأبوة ونادى: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أهلي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾هود٤٥.

وإبراهيم عليه السلام أقبل بكل مشاعر النبوة على أبيه آزر يبصره ويحذره ويستحث خطاه ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا(٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا(٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا(٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾مريم.

واقبل بكل مشاعر الأبوة على الله يسأله الخير لذريته: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾البقرة١٢٨: ١٢٩.

وتمنى على الله أن يضع الإمامة في ذريته ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾البقرة١٢٤.

كذلك موسى عليه السلام هدته فطرته وحدته عواطفه إلى أخيه فسأل الله أن يجعله ردءه وعضده ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾القصص٣٤: ٣٥.

ويضرع إلى الله أن يجعل هارون وزيره والرجل الثانى في دولته: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ طه٢٩: ٣٢.

فإذا ما وقف من ربه موقف شكوى واعتذار نادى : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾المائدة٢٥ .

وكذلك يفعل فى مواقف الاسترحام والاستغفار ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾الاعراف١٥١.

تلك عواطف المرسلين نحو ذويهم تظل ناعشة محتدمة طالما كان الأهلون مظنة رشد ومناط رجاء. فإذا خامرهم أدنى شك تصرفوا بأسلوب آخر كأسلوب موسى مع هارون ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ

إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾الأعراف١٥٠.

لا يسكن غضبه ولا تهدأ ثورته إلا بعد استعطاف يصحبه تبرير للموقف ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾.

﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾طه.

وإذا رأوا دلائل الكفر وتبينوا إمارات العداوة والحقد والحسد نفضوا أيديهم وتبرءوا ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾التوبة.

قذائف الحق وحيصة الجاهلين

ونبينا عليه الصلاة والسلام لم يطلق لعواطفه الغرزية العنان حتى تتخطى الحدود ولم يؤثر أصوله أو فروعه أو خاصته وذوى رحمه بغنم (بضم الغين وسكون النون) من دون المؤمنين بل خشى رسول الله ﷺ أن تغرهم قيم الجاهلية أو يأخذهم جلال الصدارة أو يخلب لبهم زهرة الدنيا أو فتنة الإمارة أو يقلل من عملهم رفعة النسب وشمخة الارتباط برسول الله فيتكلوا ويقدموا يوم القيامة مفلسين خشى ﷺ ذلك فأوصاهم وبالغ فى الإيصاء وعلمهم أن موازين النسب والنشب موازين كاذبة وربما حرم فاطمة أحب الناس إليه ومنعها طلبتها وهى في مسيس الحاجة ليوجهها إلى وجهة مثلى ويصرف عنها وهج معايير الجاهلية الكاذب.

ولقد أبطل الإسلام من معايير الجاهلية ما أبطل وشد بحقه على مفاهيمهم البالية فأزهقها وأحل محلها حقائق وقيما عادلة باقية أهدر السيادة القبلية والعظمة الموروثة وأبطل شمخة الحسب والنسب وحد من سلطان المال والجاه.. الخ تلك الوجاهات التى كانت تشكل مراكز قوة همها الإنكار والكفر والصد وبث العراقيل أمام الدعوة الجديدة التى رأوها تهديداً لمجتمعهم وتحطيما لقيمهم وحكما بالإعدام على تراثهم وثرائهم وشرفهم المزعوم.

وتعرض الإسلام لأوضاعهم المكتسبة جعلهم يسحون بالزلزال ويصامون (بتشديد الميم المضمومة) جبهة واحدة في مواجهة الدين الجديد.

أجراء تنظيمى

والمولى ـ كى تنتظم دنيا الناس ـ صنف الناس شعوبا وقبائل وبطونا.

وبين سبحانه أن هذا التصنيف إجراء تنظيمى لا يترتب عليه تمييز جنسى أو محاباة عنصر أو اختيار سلاله أو التغاضى عن تصرفات أو إطلاق يد حسيب نسيب كى يعربد ويخدع ويسلب. آية الحجرات هى الميزان والحق الذى قذف به على الباطل فدمغة فإذا هو زاهق ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الحجرات١٣.

ولقد روى البخارى عن أبى هريرة "إن رسول الله ﷺ سئل: أى الناس أكرم؟ قال أكرمهم عند الله أتقاهم قالوا ليس يوسف نبى الله ابن نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله قالوا ليس عن هذا نسألك قال فعن معادن العرب تسألون؟ قالوا نعم قال خياركم فى الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا"[1] ذلك لأن

---

[1] البخارى كتاب الأنبياء حديث ٣٣٥٣، ٣٣٧٤، ٣٣٨٣ المناقب حديث٣٤٩ التفسير حديث٤٦٨٩.



الإسلام بنفى عن فضائل الجاهلية زبدها ويجلوها كما يجلو الكير صدأ الحديد فإذا صاحب الإيمان فقه وارتواه بمثل الإسلام وحكمه كان صاحبه في قمة الفضل والأصالة البناءة.

وتعميقا لهذه التربية واجتثاثا لمخلفات الجاهلية يقول رسول الله فيما يرويه مسلم عن أبى هريرة " قال رسول الله ﷺ "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم"[1].

وهتف ﷺ بأبى ذر - فيما يرويه أحمد " انظر فانك لست بخير من أحمر ولا أبيض إلا أن تفضله بتقوى"[2] ويصدع وهو يقلم أظفار الجاهلية ويكبت حميتها "كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم أو ليكون أهون على الله تعالى من الجعلان"[3] رواه البزار في مسنده.

ويمضى الإسلام مطهرا الطريق مما بثه الشيطان من الغامة معبدا لقيمه ومبادئه السبيل معدا القالب الربانى كى تصهر فيه هذه الأمة لتكون خير أمة أخرجت للناس.

ولكن الإنسان مطبوع على اعتبار الذات والاعتداد بالأصل ونزعة التعالى والتغنى والمباهاة أصيلة فيه متمكنة منه فما منهج الإسلام في مقاومة هذه النزعة وتعديل السلوك؟ ذلك ما سندرسه في وقت لاحق إن شاء الله.

تحقق أن الإسلام دين تواصل وتحاب، لا دين محاباة ومحسوبية ، ولا تفرقة والرسول ﷺ رفع منذ اللحظة الأولى شعار كلكم لآدم وآدم خلق من تراب مس به أسس الوجود الجاهلى المقيت. ويخمد به لهيب العنصرية والعصبية والنعرة

---

(١) مسلم فى البر والصلة والآداب حديث٣٤ من الكتاب.

(٢) المسند جـ٥ ص١٥٨.

(٣) رمز السيوطى لحسنه قال المناوى فى فيض القدير شرح الجامع الصغير . وليس كما ذكر فقد أعله الهيثمى بأن فيه الحسن بن حسين ضعيف جـ٥ ص٣٧ حديث٦٣٦٨.



الجأهلية اجتاز على أجنحته الأعراق والأصول ويحط بالمؤمنين على أصل الأصول فيربطهم بآدم ويلحقهم النهاية بالتراب.

والاسلام ـ وهو يتصدى لتلك لأدواء مورثة ـ وضع في الحسبان في الداء عميق الغور وأن الإنسان مطبوع على الشخمة والنفخة والتغنى بالعراقة فانتهج منهجا يتسم بالحكمة ويرعى الجوانب النفسية لمرضى اشربوا فى قلوبهم مفاهيم الجأهلية الأولى وأمضوا الأحقاب معتلين (بتشديد اللام وكسرها) بلا أشفيه أو يد آسية ﴿ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾السجدة٣.

١. فالإسلام تارة يخرج الأمر مخرجا كريها في صورة منفرة بشعة روى الترمذى وأبو داود بإسناد حسن عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال (لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهن الذين ماتوا إنما هو فحم من جنهم أو أيكونن أهون على الله من الجعل[١] الذى يدهده[٢] الخراء بأنفه ان الله قد أذهب عنكم عبية[٣] الجأهلية وفخرها بالآباء إنما هو مؤمن تقى أو فاجر شقى الناس كلهم بنو آدم وآدم من تراب[٤].

٢. وتارة يقرر هذا المعنى نفسه بعبارات متغايرة تؤكد القضية وتشير إلى معانى أخرى تورث النقض وتحط من القَدْر روى أحمد والبيقهى بإسناد صحيح عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: (أنسابكم هذه ليست بمسبة على أحد كلكم بنو آدم طف الصاع بالصاع لم تملئوه[٥] ليس لأحد

---

[١] الجعل = الخنفساء

[٢] يدهده = يدحرجه

[٣] عبية الجأهلية = جفوتها وغلظتها

[٤] المسند جـ٤ ص١٤٥، ١٥٨ قال المناوى في فيض القدير شرح الجامع الصغير جـ٥ ص٥ حديث٦٢٥٢ أشار السيوطى إلى ضعفه قال: ورواه البيهقى وسكت عليه المنذرى.

[٥] المعنى كلكم في درجة واحدة

على أحد وفضل إلا بدين وتقوى كفى بالرجل أن يكون بذيا[1] فاحشا بخيلا) البخل والبذاءة والفحش ونحوها هى التى تصم وتخفض وتزرى.

٣. وتارة يرفع الإسلام من أغوار القيامة مشاهد تفيض بالحسرة. وتطفح بالخزى وتشى بالصغار والندامة ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴿١٠٥﴾قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آَمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾المؤمنون.

٤. وربما جمع الإسلام بين الآل والمال باعتبارهما الثقلين اللذين يشدان إلى الأرض والعرضين اللذين قد يخلبان اللب ويفتنان القلب ويسلمان إلى الغرو.

فالإسلام يجنب خطرهما ويحصن من فتنتهما بأسلوب تهكمى يوحى بالغفلة الشديدة والضلال البعيد ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ* نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ المؤمنون٥٥-٥٦. وتمضى الآيات معددة صفات الكرامة راسمة صور الأكرمين معقبة بالتنديد والتهديد مبينة بعد ما بين مدارج الحق ومنازل الهوى ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾المؤمنون٧١.

---

[1] البذى = الفاحش

٥. وتارة يعرض (بكسر الراء المشددة) القرآن بمن نحوا هذا المنحى. ووزنوا بميزان النعرة والهوى والغرور ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾البقرة ٢٤٧.

٦. وتارة يعرض (بكسر الراء المشددة) بأدعياء العظمة الظانين أنهم وحدهم أوعية العزة ومعادن الرئاسة وأنهم ـ بحكم كونهم الملأ أهل القرى ـ أهل لأن يستأثروا بمكرمات السماء ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾الزخرف.

ويذرو القرآن قيمهم الزائفة ذروا وينسف قواعدهم التى تواضعوا عليها نفسا حين يتبع ما سبق بموازنة بين العرض الزائل والأجل الصادق موازنة تزرى بالزهرة والزينة والطلاء الكاذب الخادع الذى يضفيه المال على الأغنياء ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الزخرف [1].

٧. ويلاحق القرآن الحمقى المنتفخين بغازات النشب (المال) والنسب والحسب يدمغهم بالعار ويجعلهم بالقار ويرميهم فيصميهم ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ

---

[1] ننبه هنا الى أن كل ما ينسحب على المال ينسحب كذلك على الإنساب، فكلها زينة الحياة الدنيا.

حَلَّافٍ مَهِينٍ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ[1] مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ[2] بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ[3]﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾القلم. فكان كل تلك الرذائل التى نضح بها وليدة نفخة المال والولد.

٨. والقرآن ـ وهو يأسو مرضى النزعتين[4] ـ قد يستعمل كلمة جامعة تتسع لكل الظلال الزائلة التى تَغُر وتُغْرى بالتكاثر والمباهاة كاستعماله كلمة (التكاثر) التى تشى بكل الصغار ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ وككنايته بكلمة (زهرة الحياة الدنيا) عن كل ذات بريق زائف أو نضارة ذابلة ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾طه١٣١.

٩. وهؤلاء الذين يتلفقون ـ رغم النذر ـ بأسمال الجاهلية البالية ويمضون ـ رغم الآيات ـ في طريق التباهى والتفاخر وما يتولد عنهما من أثرة وغبن، وتسلط، وتطاول وإزدراء للغيرة هؤلاء كأنهم يبارزون المولى ويعادون الحق فلا عجب إذا رأينا المولى سبحانه يبرز لهم ويتهددهم بالويل والثبور ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُودًا﴿١٢﴾وَبَنِينَ شُهُودًا﴿١٣﴾وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ المدثر.

١٠. ويرفع القرآن من أغوار القيامة مشاهد تبرز سكارى سلطان المال والآل مصفدين في الأغلال مسلوكين في السلاسل يصطرخون ويتندمون ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾

---

[1] الهماز = العياب .

[2] العتل = الجاف الغليظ.

[3] الزنيم = الدعى المشكوك فى أصله.

[4] نزعة التباهى بالمال، والآل.

خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾الحاقة.

١١. والقرآن يهدد ـ في آيات حافلة بالصور المعبرة ـ قيم الجأهلية الدنيا ويبين أن الدنيا بكل بهرجها وبريقها مآلها إلى رماد ويحدو المؤمنين ـ بمثل هذا التصوير المعجز ـ إلى الآجل الصادق إلى البديل العزيز﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آَمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾الحديد.

١٢. والمتوشحون بهذه الخلال المقيتة يلوذ بعضهم ببعض وقد يتلاحمون كالخلقة ويضربون نطاقا حول أولى الأمر. ويحتلون مواقع الشهرة ومراكز التأثير وهكذا يشكلون مراكز قوى (بضم القاف وفتح الواو. جمع قوة) تحدو وتوجه وتضلل زنزين.

الملأ الادنى

وهؤلاء المطبوعون على النفاق القادرون على التلون والتكيف الحريصون غاية الحرص على الترف والبقاء هم " الملأ الأدنى " الذين طالما عرض القرآن مواقفهم فى مواجهة المرسلين.

أ) هم الملأ الذين تطاولوا على نوح عليه السلام وتعنتوا معه غاية العنت عبر أجيال ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ

نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾هود٢٧. هم الذين ركبوا الرءوس وأصموا الآذان ونوح يواليهم بالموعظة ويجادلهم بالحكمة وصاحوا ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾هود٣٢.

ب) وهم الذين تصدوا لهود عليه السلام يكذبونه ويصدون عنه ويتهكمون بدعوته ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآَخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾المؤمنون.

ج) وهم الملأ من قوم صالح كفروا وأغروا بالكفر ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آَمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آَمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾الأعراف.

د) وهم ملأ ملك مصر يسارعون في ارضائه ويتفننون فى تهوين الخطوب ويفتون وليس من علم ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾يوسف.

هـ) وهم ملأ فرعون أذعنوا له وهو يتبجح بما ترفضه الفطرة ويأباه العقل ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي....﴾القصص ٣٨. وهم الذين تآمروا على موسى ورأوا ضرورة قتله ﴿... يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾القصص٢٠. وهم الذين صدوا فبالغوا، وأرهبوا، وأرعبوا، وأعلنوا الحرب النفسية، ومارسوا التصفية الجسدية ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ يونس٨٣. وهم الذين اختلقوا أسباب التصفية، وبغوا، وكالوا التهم، ورموا البرآء بأدوائهم وانسلوا ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾الأعراف١٢٧.

و) وهم ملأ بلقيس دلوا في مجلسها بقوتهم، وأشادوا ببأسهم، ورجولتهم، ثم انتكسوا فأهدروا تحت قدميها معاني الرجولة حين جعلوها ربة الأمر، والنهي، وصاحبة القرار ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾النمل.

والملئية التي تقوم على الوجاهة الزائفة، وتستقي من الثروات المشبوهة، وتتشدق بالأنساب، وتتغنى بالأجداد، وتتباهي بوفرة الأولاد يرفضها الإسلام ويسقط اعتبارها ويحل محلها ملئية الدين والتقوى والفكر السديد، والنصح الرشيد. بل الإسلام يهيب بالرسول ألا يركن إلى الملئية الدنيا طرفة عين بأسلوب خشن النبرة شديد اللهجة، وذلك حين جاء الملأ من قريش إلى النبي ﷺ وطلبوا أن يبعد عن مجلسه الذين اتبعوه من سقاط الناس، ومواليهم حتى يكونوا هم وحدهم الأصحاب، وتدبر رسول الله أمرهم فنزل قوله سبحانه

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [1] الإسراء.

ويوجه الله رسوله إلى الملئية العليا ويأمره ألا يصرفه عنهم صارف ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾الكهف٢٨. ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾الأنعام٥٢.

وفي قصة (عبس وتولي) تثبيت على الصراط، وهداية إلى الدرب الأمثل وضبط للفتات وحد من جموح الرغبات ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ﴿٥﴾ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَى ﴿٩﴾ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴿١٠﴾ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾عبس.

وهذه النصوص وأمثالها أرست قواعد العلاقات بين المؤمنين، وأبقت المواقف التي استدعتها نابضة ساخنة تجود بالعظة، والذكري، وتستحضر في الأذهان صورة الملأ من قريش وهم يصيحون برسول الله ـ مستنكرين ادناءه الضعفاء، والمغمورين من أمثال بلال، وعمار، وصهيب، وخباب ـ (يا محمد : اطرد هؤلاء). يجترئون علينا (يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء من الله عليهم من بيننا؟ أنحن نصير تبعاً لهؤلاء ؟ أطردهم فلعلك إن طردتهم نتبعك) وتذكر بوفد الأشراف إلى أبي طالب ليقولوا : لو أن ابن أخيك يطرد عنه موالينا، وحلفاءنا، فإنما هم عبيدنا وعسفاؤنا ـ لو

---

(1) سبب النزول الذي ذكرناه قاله السيوطي معزواً إلى جبير بن نفير، ضمن عدة أسباب اخري ولكن السيوطي اختار غير الذي ذكرته.



فعل كان أعظم في صدورنا، وأطوع له عندنا، وأدنى لاتباعنا إياه، وتصديقنا له.

ولقد التزم رسول الله ﷺ والمؤمنون بهذه المبادئ فصاروا لا يأبهون لمعايير الجاهلية . ولا يقيمون قيمها الدنيا ، ولا يرفعون لجاه ، أو عرق ، أو مال، أو نفر، أو شيء من زينة الدنيا وزهرتها. كيف وقد وعوا أبعاد قول الله لرسوله : ﴿ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ الكهف٢٨. وفهموا أن الآية شدتهم إلى أولى التقوى، والورع، والإخلاص، وصرفتهم عن الانبهار بالزينة واتخاذها عنصر تقويم وترجيح. ودروا أن الالتزام بهدايات القرآن كلها دليل الخشية وطريق النجاح والنجاة ـ وأن الله إذ وضع للمسلمين أصول العلاقات ـ جعل أمر التقيد بها اختياراً، وفتنة، واستلهموا كل ذلك من قول الله ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا[1] بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾الأنعام.

والرسول ﷺ ـ إرساء لقواعد أصول العلاقات، وتعميقاً لآثار هذه التربية القرآنية ـ كان لا يفتأ يثير حرارة الحرص على تلك الأصول حتى لا تبرد : (روى مسلم عن عائذ بن عمرو أن أبا سفيان أتى على سلمان، وبلال، وصهيب في نفر (قبل أن يسلم أبو سفيان) فقالوا : ما أخذت سيوف الله عن عنق عدو الله مأخذها. فقال أبو بكر : أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم ؟. فأتى النبي ﷺ

---

(1) الله يفتن بمخايل الشرف ليعلم من يغتر ويؤخذ، وبمظاهر الضعف كي يعلم من يجزع، ومن يزدري، وينفر كما يفتن الشرفاء بالضعفاء.



فأخبره، فقال : يا أبا بكر لعلك أغضبتهم ؟ لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك. فأتاهم فقال : يا أخوتاه، أغضبتكم؟ فقالوا : لا "يغفر الله لك يا أخي"[1].

أن دينا يقوم على مثل هذه الأسس لا يمكن أن يقر محاباة، أو يرضى بمحسوبية.

من خصائص التربة الإسلامية

تحليل التربة الإسلامية على النحو الذي تقدم، وضح لنا خصائص هذه التربة، وبين أن الأرض التي غزيت بقيم الإسلام، وأرويت بتعاليمه، وأشربت هداه أرض تجود بالحب، وتزدهر بالعدالة، وتحفل بالإخاء، والمساواة، والفرصة المتكافئة، وأرض الإسلام المتشبعة بهذه المعاني، ترفض ـ بطبيعتها ـ الطفيليات، وكل الحشائش الطفيلية التي تنال من الجلال، وتشوه الجمال.

والمحاباة المزعومة، والمحسوبية المفتراة التي يُتهم بها الإسلام أمور لا تحتضنها ـ أبداً ـ أرض الإسلام الطيبة التي احتملت بلد الإسلام الطيب، وغذت شجرة الإسلام الطيبة.

وابتغاء هذه النتيجة المرموقة أطلنا في التمهيد ما شاء الله لنا أن نطيل، وقلبنا الأرضية كاشفين عن جذوع المودة، والرحمة، متعانقين حتى كأنهما شيء واحد.

متتبعين توجيه الإسلام للعواطف الإنسانية حتى لا تجنح. وتحديده مسار تلك العواطف، وضعه مبادئ، وأولويات تباركها الفطرة السوية، وجعله الدين رحماً بين أهله يقتضي الأخوة، ويستلزم المودة، والرحمة ويعلو إلى المشاركة الوجدانية.

---

[1] فضائل الصحابة حديث٢٥٠٤ المسند جـ٥ ص٦٤.

مبينين أن الإسلام ـ وهو يأسو[١]، ويهدى ـ يحسب حساب جبلة الإنسان، ويرصد الغازات الخانقة التي قد تتصاعد من أعماق الحمأ المسنون. فهو لا يكبت الغرائز، بل يعليها. وهو لا يخمد العواطف بل يهذبها، ويهديها، ويبعثها دافئة، متزنة، بناءة.

والإسلام ـ وهو يكر (بضم الكاف وتشديد الراء) على مباءات[٢] الجأهلية الوخيمة، ويحمل على أدوائها المزمنة ـ قدر أنها عميقة الغور، بعيدة الجذور، فواجهها بأشفية حكيمة تنم[٣] (بكسر النون وتشديد الميم) عن معرفة بالنفوس، ومراعاة حصيفة لمقتضيات الأحوال، كما تكشف عن قدرة فائقة على محاصرة الأوابد، وترويض الطباع، وإذابة الفوارق.

وبهذه السياسة الرشيدة، والقدرات العالية استطاع الإسلام أن يصهر[٤] معادن العرب ـ بدرجاتها المتباينة ـ في بوتقة واحدة، وأن يشكل منهم أمة متميزة، فريدة الخصائص، ملتزمة بأصول اجتماعية أصلها (بتشديد الصاد) الإسلام، حريصة على الأدب الإسلامي الذي نظم (بالبناء المجهول) به أمر العلاقة بين المسلمين. ذلك الأدب الذي يرفع أخوة (بضم الهمزة، والخاء وتشديد الواو المفتوحة) الإيمان، ويعلي راية الحب، ويكرم صلات الرحم، ويقدر بميزان التقوى، ويعلن أن الناس سواسية كأسنان المشط.

والأدب الرفيع الذي اتسمت به دعوة الإسلام كان عامل أدبار وعامل إقبال.

---

(1) زعموا أن الإسلام حابي فآثر بالصلوات والبركات آل محمد، وانه ميز أهل البيت "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت، ويطهركم تطهيراً" وان محمداً ﷺ طلب لذوي قرباه معاملة متميزة "قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربي".

(٢) جمع مباءة : المكان الموبوء

(٣) تكشف

(٤) يذيب

وعامل إدبار بالنسبة لأولئك الذين استغنوا بعرض الدنيا، وتعاظموا بأصالة العرق، وتغنوا بالسيادة والجاه، والشرف الأثيل[1]. هؤلاء أحسوا بان الدنيا تميد تحت أقدامهم فجن جنونهم.

وعامل إقبال بالنسبة للضعفاء الذين اكتشفوا أنفسهم على ضوء الإسلام، وأحسوا بروعة القيم وجلال المبادئ، ودفء المأوى فآلوا ألا يسلموه، واسترخصوا من أجله النفس، والنفيس. وبالنسبة للقلة المنصفة التي رأت بلجة الحق، وأبصرت رائعة الهدي، ومعاني الإنسانية التي تعتمل في ثنايا هذا الدين العظيم.

ولم يزل المقبلون يزدادون يقظة، ووعياً، واكتمالاً، وقوة حتى بلغوا الأشد، واستووا واجتاحوا أولئك المدبرين الذين ازدادوا غفلة وتخلفاً ووهناً.

ولم يكن لرسول الله ﷺ ـ وهو اللبيب اللوذعي الأريب ـ أن يشوه جلال تلك القيم الفاضلة أو يفسد مفعولها العظيم بالدعوة إلى "محسوبية" تصريحاً، أو تلميحاً. كيف وهو ﷺ أهرف الناس حساً، وأثقبهم نظراً، وفكراً وأغناهم بالعواطف النبيلة العادلة.

والرسول ﷺ أقبل بكل هذه المعاني السامية على الناس وعلى الأمة، وعلى خاصته باعتبارهم الأدنين. باعتبارهم أولى العالمين بالإنذار، والإلتزام (وأنذر عشيرتك الأقربين).

وخاصته ـ كسائر الناس ـ محل حب، وموضع ولاية طالما كانوا مؤمنين. فإن افتقدوا خلة الإيمان فلا ولاية ولكن لهم رحم تبل ببلالها. "روى البخاري عن عمرو بن العاص قال: سمعت النبي ﷺ جهاراً غير سر يقول: أن آل فلان،

---

[1] الزكي الأصيل



أو أبي فلان[1] ليسوا بأوليائي، إنما وليي الله وصالح المؤمنين، ولكن لهم رحم أبلها[2] (بضم الباء وتشديد اللام المضمومة ببلالها)".

ولقد مر بنا موقفه ﷺ من قريش، وكيف دعا عليهم بالعسرة، والقحط - ربما متأثراً بنظرة نوح عليه السلام "انك إن تذرهم يضلوا عبادك" - وكيف عاد فرق لهم حين استشفعوا بالرحم، ودعا لهم بالخصب رعاية للرحم التي تبل (بالبناء للمجهول) ببلالها، وتوصل بحقها، وجراء للقاعدة العامة التي توجب البر، والأقساط، وتفترض التحاب. ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ* إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ الممتحنة٨-٩.

والآيتان - كما نرى - تتناولان.

١. البر، والإقساط وهما بمفهومهما الواسع - يتسعان لكل ذات كبد رطبة "في كل ذات كبد رطبة أجر"[3].

٢. الموالاة وهى وليدة الإيمان ولا تكون إلا بين مؤمنين. والكافر - وان سالم - لا يعدو حد البر، والإقساط .

---

[1] شك من الراوي ؟ قيل المعني "أبو طالب" نفسه. فكأنه برغم أياديه، ومواقفه، ليس أهلاً لشرف الموالاة لافتقاده الإيمان، وقيل المراد آل أبي طالب ممن لم يؤمنوا فهم في حكم ابن نوح "انه ليس من أهلك".

[2] أصلها بصلتها البخارى كتاب الأدب حديث ٥٩٩٠ مسلم في الإيمان حديث ٢٦٥.

[3] البخارى حديث ٢٣٦٣ كتاب المساقاه مسلم كتاب السلام حديث ٢٢٤٤ عن أبى هريرة رضي الله عنه



حساسية يحسب حسابها

والعرب ـ ولاسيما الأنصار ـ كانوا أصحاب مشاعر مرهفة. تقيمهم كلمة وتقعدهم، وتثيرهم النظرة، ويؤرقهم الخاطر، ويقر عيونهم الإقبال، ويجرح كبرياءهم الأعراض...الخ.

وهذه الصفات المتوترة وراء كل ما صدر عنهم من شهامة ونخوة، ومن كرم، ونجدة، ومن حب، وغيرة، ومن حمية، وصولة، ومن شعر، وخطب، ومن وفاق، وشقاق، وفراق، وتلاق.

وتأثرهم بهذه الصفات العصبية كثيراً ما حال بينهم وبين النظرة المتمعنة العميقة التي تسبر الأغوار، وتحيط بالأبعاد، وتعين على القرار الثاقب السديد. كثيراً ما شدتهم إلى أنفسهم، وحبستهم في مجالات ضيقة، وآفاق محدودة.

وضغوط تلك الصفات صرفتهم عن الحكمة التي تورث الأناة، وعمق السياسة، وحسن التخطيط. والعرب كلن فيهم حكماء. ولكنهم كانوا قلة بالنسبة للشعراء والخطباء.

وكان فيهم حكمة. ولكنها كانت في الغالب بدائية، مطروحة في الطريق، منابعها تحت الأقدام. ونفسية العربي كانت تتشكل ـ في الغالب ـ من تلك الصفات. ومعرفة أعداء العرب بعصبية الخلال العربية هونت عليهم أمر استعمارهم ومكنتهم من التسلط، والسيادة.

ورسول الله ﷺ كان وفق قول الشاعر : (الألمعي الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا) وكان يعلم حقيقة قومه، وانهم سرعان ما ترم أنوفهم فيتجأهلون. وكان لابد ـ بحكم كونه نبى دعوة. ودولة ـ أن يعيد تشكيل الأمة ويخفف من الوطأة العاطفية التي تتملكهم أحياناً. وأن يصوغهم ـ في قوالب الإسلام ـ صياغة جديدة موشاه (بفتح الواو وتشديد الشين) بالأناة والحلم

والصبر، والسكينة، وبعد النظر، وسداد الفكرة، وحسن الإعداد، وسلامة التخطيط.

كان لابد أن يربيهم تربية جديدة تقوم على حسابات دقيقة تعمل ألف حساب لتلك النزعات الموروثة. تربية رائدها الصفح الجميل، والصبر الجميل، والحداء الجميل. رائدها ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾النحل ١٢٥.

ولقد درى رسول الله ﷺ أن العرب ـ ولاسيما الأنصار ـ ذوو حساسية شديدة هى وليدة تلك الصفات التي نوهنا بها.

ودرى ﷺ أن أمته التي أشربت دعوة الإسلام، وأغرمت بمبادئه وقيمه ـ تنظر إليه لا باعتباره فرداً، ولكن باعتباره قيم الإسلام، وبمبادئه، مجسدة تمشي على الأرض. ودرايته ﷺ بهذا كانت تفرض عليه أن يتكلم بمعيار، ويتصرف بحساب ـ أن مسيرته ﷺ كانت شاقة مضنية، ولا عجب فقد كان يكابد كى يبعث أمة طويت في لفائف من عادات وصفات، ورؤى جاهلية. ثم يصهرهم في بوتقة الإسلام، ويصوغهم في قوالبه أو ينسجهم على منواله.

والمسلمون ـ ولاسيما الأنصار ـ تعلقوا بمبادئ الإسلام التي لا تداني. وتعلقوا برسول الله ﷺ الذي احتشدت فيه كل القيم الأخاذة البناءة التي ضوت في دعوة الإسلام.

من مظاهر تلك الحساسية ان الأنصار كان يهمهم مجرد التفكير في احتمالات عودة رسول الله ﷺ إلى القرية الأم ـ أم القرى ـ وفي احتمالات انحيازه إلى ذويه وأهله. أو في احتمالات انصرافه عنهم لسبب أو لأخر.

روى البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس رضى الله عنه قال: أن ناساً من الأنصار قالوا حين أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء. فطفق يعطي رجالاً من قريش المائة من الإبل فقالوا : يغفر الله لرسول الله. يعطي قريشاً، ويدعنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم. فحدث (بالبناء للمجهول) لرسول الله ﷺ

بمقالتهم، فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قبة من أدم (بفتح الهمزة والدال) ولم يدع معهم أحداً غيرهم، فلما اجتمعوا جاءَهم فقال ما حديث بلغني عنكم؟ فقال فقهاؤهم : أما ذوو رأينا يا رسول الله فلم يقولوا شيئاً. وأما أناس منا حديثة أسنانهم فقد قالوا : يغفر الله لرسول الله. يعطي قريشاً، ويدع الأنصار، وسيوفنا تقطر من دمائهم. فقال رسول الله ﷺ : اني أعطى رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم. أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال، وترجعون إلى رحالكم برسول الله؟ قالوا : بلى يا رسول الله قد رضينا[١].

وروى مسلم عن أبي هريرة ـ قال: كنا مع رسول الله يوم الفتح، فقال ﷺ : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، فقالت الأنصار : أما الرجل فقد أخذته رأفة بعشيرته، ورغبة في قريته. ونزل الوحى على رسول الله ﷺ . قال : قلتم: أما الرجل فقد أخذته رأفة بعشيرته، ورغبة في قريته. كلا إني عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله، واليكم. المحيا محياكم، والممات مماتكم. قالوا : والله ما قلنا إلا ضنا بالله ورسوله. قال وإن الله، ورسوله يصدقانكم، ويعذرانكم[٢].

رسول الله ﷺ ـ اعتباراً لهذه الحساسية وإدراكاً لآثارها ـ كان لا يفتأ يسكنها كلما ثارت، ويطفئها كلما احتدمت بجميل التوجيه، وحسن الموالاة، وصادق الوعد.

روى البخاري عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال:ـ لولا الهجرة لكنت أمرا من الأنصار، ولو سلك الناس وادياً أو شعباً، لسلكت وادي الأنصار وشعبها. والأنصار شعار، والناس دثار. إنكم سترون بعدي أثرة فأصبروا حتى تلقوني على الحوض[٣]. إن الله تعالى ربط رسوله ﷺ بكل الذين يدعون

---

(1) البخارى كتاب مناقب الأنصار حديث ٣٧٧٨.
(2) مسلم كتاب الجهاد والسير حديث ٨٦ من الكتاب.
(3) البخارى مناقب الأنصار حديث ٣٧٩٩ ، طرفه ٧٢٤٤.

ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، وأمر، الا تعدو عيناهم. فلفتات رسول الله ﷺ موزعة على كل هؤلاء. وإقباله، وبشاشته وكل أرواحه الزكية شاملة لكل هؤلاء. وهو يوصي من منطلق الأخوة الإيمانية بكل هؤلاء. أوصى بالمرأة، والرقيق وأوصى بأهل بيته، وأوصى بالمهاجرين، وأوصى بالأنصار خيراً في آخر أيامه مغالباً رعدة الحمي، وعضة المرض.

روى البخاري عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: مر أبو بكر، والعباس بمجلس من مجالس الأنصار، وهم يبكون فقالا: ما يبكيكم ؟ فقالوا: ذكرنا مجلس النبي ﷺ فدخل أحدهما على النبى ﷺ فأخبره. فخرج النبي وقد عصب على رأسه حاشية برد فصعد المنبر ـ ولم يصعد بعد ذلك اليوم ـ فحمد الله، واثنى عليه ثم قال: أوصيكم بالأنصار فانهم كرشي (بطانتي) وعيبتي (خاصتي) وقد قضوا الذي عليهم، وبقى الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم[1].

والرسول ﷺ ـ فيما أظن ـ قد تجشم ما تجشم، وحمل نفسه على العناء كى يلمس لمسة أخيرة على قلوب الأنصار يسكنها، ويذهب عنها برح الحساسية، وجوى الفقدان.

وكى يلمس لمسة أخيرة على قلوب أولى الأمر من بعده، يستجيشها، ويثير فيها معاني الأخوة، وخلق العرفان.

وكان رسول الله ﷺ كان يرى بعين اليقين إن ما كبت من نوازع يمكن أن يطل برأسه ثم ينطلق مجتاحاً مدمراً. لا يذر من شىء أتى عليه إلا جعله كالرميم.

---

[1] البخارى مناقب الأنصار حديث ٣٧٩٩، ٣٨٠١.

روى مسلم عن أبي بردة عن أبيه (أبي موسى الأشعري) قال: رفع النبي ﷺ رأسه إلى السماء ـ وكان كثيراً ما يرفع رأسه إلى السماء ـ فقال: النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أنا، أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون[1].

هكذا كان علم رسول الله ﷺ. وكذلك كانت رؤيته. والرسول وهو يوصي في آخر أيامه بالأنصار إنما أراد أن يعكس على أصحابه مما علم رجاء أم يراعوا مثله الحساسيات ويعرفوا الأقدار، ويحملوا من بعده أمانة الريادة بالحكمة، والموعظة الحسنة وأمانة السياسة الراشدة التي توفر الأمن وتجمع الشمل وتثلج الصدور.

والمحاباة تلد مزيداً من محاباة وتورث التفكك، والتباعد والتباغض ودعامة الكينونة الإسلامية التحام وحب، والتئام، واعتصام بقيم الإسلام.

(زعموا ان الإسلام حابى آل محمد فآثرهم بالصلوات وخصهم بالبركات. وأن محمد ﷺ ميز ذوى قرباه حين طلب لهم معاملة متميزة)

إنها خصائص لا تنبت إلا العز، ولا تجود إلا بالقيم المثلي ولا تحتضن إلا الإخاء والمساواة، والعدالة، والفرص المتكافئة.

وذوب تلك الخصائص هو الذي أروي عروق الأولين، وغذى أوصالهم، ووحد أمرهم حتى بدوا شجرة فينانة طيبة الجني[2] (بفتح الجيم والنون) وارفة الظل، مبسوطة البدن ﴿ ... وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ الفتح٢٩

---

(1) مسلم فضائل الصحابة حديث٢٥٣١.
(2) الثمار



استطراد

وتربة الإسلام لا تزال نجيبة، معطاء، وشياطين الجن والإنس إن اجتمعوا على أن يغيروا من خصائصها، أو يعصفوا بمبادئها لا يستطيعون وان كان بعضهم لبعض ظهيراً.

وهم الشياطين ينحصر ـ في محاولات التلبيس، والتغريب، والتخييل، والتضليل، والتمويه بالبدع، وبالنباتات الطفيلية التي تغشي الواجهة، وتكسو ظاهر الأرض.

ومحاولات الشياطين قد تخدع البصر، والحشائش الطفيلية قد تشكل طبقة عازلة تضعف المدد، أو توقف الري، أو توهن التيار، وحينئذ يصعب اتصال المسلم بتربته، ويعسر استمداده، أو امتصاصه من رحيق التربة ذات الخصائص المعجزة.

وكلما طال المدى، كلما اشتد التباين بين المسلم وتربته. وهكذا يستحيل المسلمون إلى أعواد باهتة صفراء. ثم يسقطون، حطاماً ثم يذرون (بالبناء للمجهول) هشيماً أدراج الرياح.

والمسلمون ـ في أوضاعهم الراهنة ـ يعانون الانفصام الفاجع بين الواقع والمنبت بين النظرية، والتطبيق بين السلوك، والعقيدة.

فهم ـ في وضعهم الراهن ـ لا يصلحون عنواناً للإسلام، ولا يكونون حيثية من حيثيات الحكم على هذا الدين.

نعم ان المنصف الذي ينشد الحق لا ينبغي أن ينظر إلى الإسلام من خلال المسلمين الذين تآكلوا من الداخل، وغدوا حجباً كثيفة سوداء نغطي المنافذ، والآفاق، وتضني الأبصار.



فإذا فاضت دميا المسلمين بالجوي، الهوي، والاستبداد، والأثرة، الإنطوائية، والانتهازية، والغش، والمحاباة، والمحسوبية، والزيف، والزور....الخ.

وإذا بدا المسلمون هياكل، خشباً مسندة، أو رمياً...الخ ليس معني أن ذلك هو الإسلام بل الحق الذي لا شك فيه أن واقعهم ينطق بمدي بعدهم عن قيم الإسلام، وفكره الناصع المبين الذي يحيط بالدنيا والآخرة.

إن المسلمين ـ بلا شك ـ متخلفون تحتويهم غيبوبة مزمنة. ويتردون[١] (بفتح الياء، والتاء، والراء والدال المشددة) وهم يسيرون القهقري في غيابات الأضرحة، ويركضون بأرجلهم يحفرون بها القبور، ويثرون التراب وكأنهم أحسوا بأن مضاجع الموتى هي المكان الطبيعي للمتخلفين.

أما الإسلام فإن بيارقة العالية لا تزال تتصدر ركب الإنسانية رائدة هادية داعية.

سر هذا الاستطراد

ولقد استطردت في الحديث ولكني لم أخرج عن الجادة، وأمسكت والمقام يغريني بمزيد من اللف والنشر، والاستطراد، وسر هذا حوار حار دار بيني وبين زمني[٢] (بفتح الميم وكسر النون وتشديد الياء) بعثي[٣] ماداني[٤] يزعم أن الإسلام كان قوام فئة محدودة، في زمن محدود، في بقاع محدودة. وأن الحضارة الباقية هي حضارة المادة، وان العاقبة للدنيوية القائمة على المادانية، والعلمانية.

---

(1) يسقطون

(2) الزمني نسبة إلى الزمن. والزمنيون يزعمون ان تغير الوعاء يقتضي بالضرورة تغير الوعي وأن لكل زمان دولة ورجالاً "ان هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر".

(3) البعثيون يطرحون الإسلام ويتغنون بالعروبة والقومية العربية. ويزعمون ان عظمة محمد ﷺ تكمن في عروبته.

(4) المادانية المغالاة في تقديس المادة كما أن العلمانية عبادة العلم ـ وكلا اللفظين يوحيان بالمبالغة الطاغية .

وأن الدين ينبغي ألا يزج برأسه في دنيا متطورة جارية، وان الإسلاميين هم المعوقون، كلما أحسوا بخطأ تقدميه تصدوا لها ونادوا هلم إلينا.

والزمنيون ـ بل سمهم أن شئت الزمني[1] ـ يلوون عنق الآيات، ويجادلون بالقرآن جدال المنافقين. والزمنيون وأمثالهم من صنائع الماسونية، وربائب أندية الروتاري ومن طلائع الإلحاد وعملاء الصهيونية، والصليبية. يغشون المحافل الدينية، ويحضرون الندوات الإسلامية، ويندسون بمهارة بين الشباب المسلم ويجارونهم، ويدارونهم، وربما أطلقوا اللحي، أو أرسلوا العذبة أو أمسكوا بالعصا وقصروا الجلباب، وربما تأبطوا الأسفار الصفراء، وربما تظاهروا بالغفلة. كل ذلك طبقاً لخطة مدروسة تتيح لهم أن يقفوا على مد الإسلام، ويزنوا حركات الشباب المسلم، ويعدوا سجلات ضافية عن الشباب ولاسيما الرواد. سجلات تعد ليوم الكريهة، والروع. إن كان ثمة يوم كريهة، وروع.

وهؤلاء لدقة تنكرهم، وجودة تمثيلهم يخفون على كثير من إخواننا الذين يتصدرون الركب ويؤمون قوافل الشباب. ولقد شاهدت بعيني ملحداً أعرفه كما أعرف أبنائي، يأخذ بالأحضان شيخاً مرموقاً ذائع الصيت، يتمسح بصدر الشيخ ويمطره بالقبلات، ويلتمس البركات. ولما رآني انصرف كالشيطان وله ضراط وسألت عنه الشيخ فمجد، ونزه، وأثني على دينه، وغيرته، وحمد سعيه المشكور لإعلاء كلمة الله.

وأخبرت الشيخ بأمره، فاسترجع، وحوقل ،واستعاذ من فتنة القول، وفتنة العمل.

ومن هؤلاء الملحدين الخطرين من استطاع ـ بطرقه ـ أن يعلو الحواجز، ويتخطى الأسوار، ونفذ إلى المملكة العربية السعودية. وبقي فيها سنوات ـ معاراً أو متعاقداً ـ يبث السموم، ويفسد القلوب، ويعد لساعة الصفر.

---

(1) الزمني = المرضي



واجهني القطب الزمني بعد أن تابع محاضراتي في العشر الأواخر من رمضان.

١. مستفتحاً بقوله تعالي: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ الأحزاب١٨.

٢. وقال: ـ ما أشد جنايتكم على الشباب. ألا فاعلموا أن الدنيا بكل زهراتها وإيجابياتها تشكل القوة والدين بكل روحانياته وسلبياته يشكل مقاومة واهية هزيلة وجنايتكم إنكم بنفخكم في أوعية الدين واهنة أضعتم كل شيء. وكنتم كالمرأة التي دخلت النار في هرة حبستها فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض. وكذلك فعلتم بالشباب، وبالأمة لم تخلو بينهم وبين الدنيا. ولم تقووا على شدهم إلى الساحة الموحشة الفقراء. وكنتم وكانوا معكم كالمنبت لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقي.

٣. وقال: بربك قل لي: ما قيمة فكركم الناصع المبين الذي لا يصمد أمام مشاكل التطبيق؟

إن الإسلام لم يدم عنفوانه إلا ساعة من نهار، وان المسلمين لم يلبثوا الا أمداً هو بمقياس الدهر يوم أو بعض يوم. وهب أن هذا اليوم امتد حتى غطي ثلاثة قرون مصداق حديث الرسول ﷺ "خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم..."[1] ماذا تساوي ثلاثة القرون بالنسبة لعمر الأمم ؟

٤. وقال: ـ وهب أن الإسلام فكر ناصع مبين ـ كما يحلو لك دائماً أن تردد ـ وهب أيضاً أن العيب كل العيب في القوم الذين لم يؤدوا الأمانة، ولم يفوا بحق

---

[1] البخارى كتاب الشهادات حديث٢٦٥٢ أطرافه ٣٦٥١ فضائل أصحاب النبى ﷺ كتاب الرقاق حديث٦٤٢٩، كتاب الايمان٦٦٥٨ عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه مسلم فضائل أصحاب النبى ﷺ ٢٥٣٣.

الدين ولم يذودوا عن حماه. فقل لي بربك: لماذا حمل ـ بالبناء للمجهول ـ ثقل هذا الدين وهو جد ثقيل بنص القرآن. لماذا حمل على عواتق هزيلة، وعلق بكوأهل متخاذلة عليلة؟ ولماذا أنيط أمر الدين بأمة مقطوعة النفس سرعان ما تلهث وتعجز وتعيا ؟ لماذا العرب وقد كانوا في الجأهلية أحط الناس. وعاشوا رغم الإسلام أحط الناس بدليل أنهم سرعان ما فرطوا في دينهم. وسرعان ما نسوا الأخوة والقيم وتطاحنوا بالقنا والرماح والسيوف؟

٥. وقال : لو أن الله أراد لهذا الدين أن يستمر ويبلغ مغرب الشمس لاستودع فكره الناصع المبين أمة من أمم الغرب. إذن لنصروه، ونشروه ولكن الله وكله إلى العرب وهو عليهم بضيق صدورهم وقصر- باعهم وأنفاسهم وطغيان عواطفهم وأهوائهم. ومفاد هذا أن المولي لا يريد لهذا الدين أن يستمر ظاهراً إلى يوم القيامة. هذا قضاء الله ففيم التشبث بأحكام أضحت ـ في زمننا هذا ـ غير ذات موضوع.

٦. وقال : إنكم تصيحون فما صدي الصياح؟ تغرير بالوعود، وتخدير بمعسول الكلام، وتغيير للمفاهيم بأجهزة الإعلام، وإجهاض من بعد إجهاض، من بعد إجهاض فمتي تفيقون.

والجواب ؟

ذلك سر من أسرار الاستطراد. غير أني لن أستسلم لإغرائه، ولن أسبح مع تياره. بل سأعود بنفسي إلى الجادة الأولي، إلى موضوع الآل والأهل والمودة في القربى. مدخراً الجواب لمقام آخر مكتفياً بتسجيل تلك الأقاويل الضالة المضلة، آملاً أن يقف القراء ملياً أمام هذه الأقاويل متمعنين، متدبرين، وحبذا أن يدرسوا جوانب مثل هذه الأقاويل ويشتركوا معنا في الرد، وإحقاق الحق.

أن يبحثوا عن قيم الإسلام العليا، وسياسة الإسلام الرشيدة، وعزة المسلمين المجيدة كيف ذابت وأين غابت ؟ فيم ضلوا ؟ ولم ذلوا؟

ما الخطة المثلي، والمنهج القويم الذي يهدي إلى الرشد ؟ بم نواجه مكر أولئك ؟ وكيف نتصدى لكيد أكابر المجرمين وأصاغرهم ؟

كيف نبعث هذه الأمة الغائبة وكيف نغريها بالأشفية، ونسقيها الترياق.

إن أصوات القوي المضادة أعلي، ووسائلهم أقوي، وإمكانتهم أوسع، وبأسهم شديد، وبأسنا بيننا شديداً، وقلوبنا شتي.

ثم ردود الفعل الصادرة من الضغوط المستمرة، ومن ذل السنين ؟ وما العبرة التي نأخذها مما سلف من تخطب وعفوية، وانفعالية لا تضبطها بصيرة، ولا يحتويها تخطيط ؟ ومحنة المسلمين في كل مكان. هل عمت اتفاقاً أم جاءت وليدة تدبير وتخطيط، وتآمر؟

أسئلة مؤرقة لابد أن توضع في الحسبان وترفع نصب الأعين عند تشخيص الداء، وعند وصف الدواء وعند تحديد شكله وطريقة تعاطيه، حقناً في الدم أو شماً بالأنف أو بلعاً بالفم أو كياً، أو مساً بالأشعة أو جراحة...الخ.

ذلك سر من أسرار الاستطراد والسر الآخر هو أنني أردت أن أوضح أن المحنة التي ضربت أطنابها على الأمة الإسلامية قاطبة لها علاقة بهذا الخبل الذي أصاب فكر عديد ممن ينتمون إلى هذه الأمة، بل فكر كثير ممن يسيطرون على مجالات الكلام، ويحتلون مواقع التأثير، ويتمتعون بالبريق الخلب، والألقاب الطنانة، وأرائك الحظوة التي تباركها القوي المضادة للإسلام، تلك القوي التي لا تألونا خبالاً، ولا تضمر لنا إلا عنتاً، وبغضاء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآَيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ

تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴿١١٩﴾ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾آل عمران.

والمولي قد حذر من مجرد تواجدهم في صفوفنا، ونبه إلى الأثر السيئ الذي يترتب على مجرد مواكبتهم لنا. فكيف لو استبطنوا وملكوا الزمام، وصاروا الأولياء ؟ ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾التوبة ٤٧.

ومن مظاهر الخبال الذي رمينا به ما نري، ونسمع من : تمجيد للمادة، وتغن بالفن، وتجريم للمتدينين، ونيل من جلال الشريعة، وتكذيب لمواقف قرآنية، وتندر بالجنة، والنار، وافتراء على الإسلام، ودفاع عن الكافرين به، وتهجم على مقام المولي جل وعلا بالتطاول عليه، ونحله سبحانه ما لم يقل، ومن دفاع عن هذا المتطاول الذي تجاوز قدره القميء فراح ينسب إلى الله فكرة الغث السقيم، وكلماته الفاجرة المسمومة ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾الأنعام ٩٣

كذلك ما نري ونسمع من عدوان على مقام الرسول ﷺ ووصمه بالمحسوبية، والمحاباة من منطلق المقت، او من منطلق الجهل. ومن... ومن... ومن....

زوابع قاصمة تلف دنيا المسلمين، وتثور فوقهم وتحت أرجلهم مبرقة، مرعدة وكلها تنم عن الوهن، وتشى بالزلزال الذي هز الأركان، وهدد البنيان.



إن الهزات وليدة المحن، وهي بدورها أفضت إلى مزيد من محن فمزيد من خبال، فما أشد ترابط كل تلك الظواهر. وما أوضح انتساب بعضها لبعض.

زعموا أن الاسلام دين محاباة، وروجوا أنه حابى آل محمد فخصهم بالصلوات، والبركات، وأضمر لهم ما لم يضمره لغيرهم، وطلب لهم المودة والتكريم. وليس كذلك.

إن الإسلام دين القيم وأنه دائما على صراط مستقيم ناصع.

ولكن حكمة الله اقتضت أن يمد هذا الصراط بين سبل مضلة تعمرها شياطين مصداق ما روى احمد والنسائى عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ خطا ثم قال هذا سبيل الله ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شماله وقال : هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1] الأنعام١٥٣.

فالأصوات التى ترتفع عليلة مموهة بزخرف القول أو صاخبة ملتهبة بضرام الحقد هى أصوات الزيغ والمكر والاضلال والتغرير.

ولقد أوضح لنا ابن مسعود رضى الله عنه معالم تلم اللوحة التى وضعت خطوطها بيد النبى الكريم ﷺ (سئل ابن مسعود رضى الله عنه: ما الصراط المستقيم ؟ قال تركنا محمد ﷺ في أدناه وطرفه في الجنة وعن يمينه جواد (بتشديد الدال. جمع جادة والجادة الطريق) وعن يساره جواد وثم (بفتح الثاء) رجال يدعون من مر بهم. فمن أخذ في تلك الجواد انتهت به إلى النار ومن أخذ على الصراط المستقيم انتهى به إلى الجنة ثم قرأ ابن مسعود : ﴿وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ أخرجه رزين موقوفا[2].

---

(1) رواه أحمد والبزار وفيه عاصم بن أبى بهدلة هو ثقة وفيه ضعف مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمى جـ٧ ص٢٢

(2) جامع الأصول أثر رقم٧٠١٦ كتاب الفضائل والمناقب الفصل الأول فضل الإيمان وقال اخرجه رزين. قال المحقق وأخرجه عبد الرزاق وابن جرير وابن مردويه والأثر موقوف.

أردنا بكل ما أسلفنا أن نعلم أن الإسلام حريص على ترابط المجتمع المسلم بروابط الأخوة والمودة والألفة والمرحمة حريص على أن يظل هذا المجتمع بعيداً عن مزالق الأثرة والفردية والانتهازية والانحلالية والغى والهوى وحمية الجاهلية.

والمسلمون أن ضلوا فزلوا فترددوا فى المهالك وذلوا فلأنهم أسدلوا على وجوههم حجبا فتلوها بأيديهم وحشوا أعينهم بأغشية نسجوها بأيديهم وخسروا أنفسهم فى غيابات حفروها بأيديهم وباتوا يعانون من مخمصة مادية ومعنوية حاكوا أعطافها بأنفسهم فلا عجب وقد احتوتهم الغفلات ـ إذا صدقوا كل ناعق أو تشدقوا بكل باطل زاهق ولا غرابة إذا آبوا بشر ـ السمع والبصر ـ واللسان والفؤاد وغنموا خزى الدنيا والآخرة وعاشوا غلبة الدين وقهر الرجال.

والآن وبعد ذلك السبح الطويل الهادف نقف وجها لوجه مع مزاعم الحاقدين وتأويل الجاهلين مستفتحين بقوله سبحانه ﴿لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾الشوري٢٣ .

والنص الكريم فى صيغته الموحية وأسلوبه الفخم هو صوت الحق علا مجلجلا عبر أجواء تثير الرغب والرهب واسترسل مصلصلا في معية معلن تدهم الذين يحاجون فى الله وتدحض حججهم وتتوعدهم بالويل والثبور ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾الشورى ١٦

وهو الأذان السماوى ارتفع في بيئة قرآنية تنبذ الغافلين وتزرى كتاب منير، الموغلين فى متاهات تسلم إلى الضلال، وتفضى إلى الضياع ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ

الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[٢١] تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ...﴾الشورى٢٢.

صوت الحق دوى في سياق نذر تشهر سيف الحق، وتلوح بقبضة العز ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾الشورى٢٤.

وخلال هذه النذر تمضي بروق رخية السنى، زكية الأرواح واعدة مبشرة ﴿ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ [٢٢] ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾الشورى٢٣.

وبعد تلك النذر التى تقذف بالحمم وهذه البشارة التى تزخر بالمن وتذكر بالفضل يؤمر رسول الله ﷺ بأن يرفع نداء العزة.

مقتضى السياق

وارتباط النص بما سبق وبما لحق وارتفاعه فى بيئة توحى بالقوة والقدرة والعزة يرجح وحدة الملامح بين أفراد البيئة الواحدة ووحدة الجو النفسى الذى يعم الوسط ويهب على قضاياه.

والنص ـ بهذا المقتضى ـ ـ يزخر بالشموخ ويزفر بالقوة ويشى بالثقة والاعتداد

والذى يقذف بمثل هذا الحق ينبغى أن يكون عزيزا عملاقا يسمو فوق ذل السؤال أو مهانة الاستعطاف والنظر إلى المخلوق كيف وعظمة الله تحيط بعبده من كل جانب ورحمته تنزل متدفقة من كل صوب ؟

وإيحاء بهذا وإشعارا بالعزة التى تحدق برسـول الله ﷺ حفلـت البيئـة بلفـظ الجلالة "الله" وبضمير الجلالة "هو" فلا مجال لقوة أخرى ولا مكـان لمخلـوق ولا لياذ إلا بالخالق .

١. ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْـزَلَ الْكِتَـابَ بِـالْحَقِّ وَالْمِيـزَانَ وَمَـا يُـدْرِيكَ لَعَـلَّ السَّـاعَةَ قَرِيبٌ﴾الشورى ١٧

٢. ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾الشورى ١٩

٣. ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ﴾ الشورى ٢٣

٤. ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِـكَ وَيَمْـحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ الشورى٢٤

٥. ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾الشورى ٢٧

٦. ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَـا قَنَطُـوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَـهُ وَهُـوَ الْـوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾الشورى ٢٨... إلخ

إن القوة المتفجرة من مثـل هـذه الآيـات حريـة أن ترفـع رءوس المـؤمنين وتعصمهم عن سؤال غير الله.

وإذا كان هذا هو شأن عامة المؤمنين فكيف بأول المؤمنين؟ أن رسول الله ﷺ أولى بألا نضعه موضعا مشبوها موضع من يستجدى أو ينتظر من الناس عائـدا ماديا أو معنويا مباشرا أو غير مباشر لقاء تبليغ الرسالة .

أسلوب التلقين "قل"

ذلك عطاء البيئة وإيحاء السياق فما عطاء الأسلوب ؟

إن قرار الاحتساب والزهد فيما عند الناس ابتدئ بكلمة " قل " التى تنم عن عناية فائقة بموضوع الحديث ومثل هذا الأسلوب يعرف " بالأسلوب التلقينى " وهو أسلوب مثير يربط بكلمة الحق ويلقن الحجة البالغة ويأمر بقذفها قدفا يأخذ بالألباب ويحسم الموقف ويسد على الخصم كل طريق فلا يستطيع التلفت. ويكثر مجئ هذا الأسلوب في المواقف التى تتطلب الصلابة أو الصرامة والحسم.

١ – يجئ في مقامات توضيح العقيدة بيان أسس الإيمان ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ﴾ آل عمران٨٤.

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الأنعام١٦١ ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾الأنعام.

٢– وفي مقامات تقرير التوحيد ونبذ نوازع الشرك ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾الأنعام ١٩ ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾الأنعام ١٦٤

٣– وفي مقامات التعريف بالله وصفاته ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾٦٣ الأنعام ﴿قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾الانعام٦٤ .

٤- وفي مقامات التخويف والوعظ البليغ ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَـذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾الأنعام.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّـنْ إِلَـهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ الأنعام٤٦

٥- وفي مقامات الوعيد والتهديد ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْـفَ كَـانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾الأنعام١١. ﴿قُلْ يَا قَـوْمِ اعْمَلُـوا عَـلَى مَكَـانَتِكُمْ إِنِّي عَامِـلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ الأنعام. ١٣٥

٦- وفي مقامات المحاجة وتضييق الخناق على الخصوم ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أهل لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّـكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾الأنعام ١٤٥ ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْـهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَـرَّمَ هَذَا﴾الأنعام ١٥٠ ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ ﴾ الانعام١٥١.

٧- وفي المقامات التى تتطلب جهرا باليقين واعتـدادا بالطريقـة ﴿ قُـلْ إِنَّنِـي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ الأنعام١٦١ ﴿ قُـلْ إِنِّي عَـلَى بَيِّنَـةٍ مِّـن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ الأنعام٥٧ .

٨- وفي مقامات الاعتراف بالقدر والحجم البشرى ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ الكهف١١٠. ﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَـمُ الْغَيْـبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَـكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَـا يُـوحَى إِلَيَّ قُـلْ هَـلْ يَسْـتَوِي الأَعْمَـى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ الأنعام٥٠

٩- وفى مقامات اظهار العبودية والخشية ﴿ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً ﴾ الجن٢٢.

١٠- وعند سوق أمر مستغرب غير مألوف ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً ﴾ الجن١.

١١- وعند القهر وكبت الأعداء ﴿ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ... ﴾ آل عمران١١٩.

١٢- واستبراء وطمأنة للنفس الهلوع التى أشربت الشح ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ﴾ الأنعام٩٠. ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ ص٨٦. ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾٤٧ سبأ. ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ الشورى٢٣.

هذه هى أبرز المقامات التى استعمل فيها أسلوب التلقين "قل" وقد تبرز - حين نستعرض الآيات التى عنيت بهذا الأسلوب قد تبرز أغراض أخرى. ولكنها عند التمعن تَقْرُبْ بل تتداخل في هذه الأغراض التى ذكرناها. وكلها فى مجملها تنبئ عن الحسم والعزم وفصل المقال كما توحى بأن القذف بالحق على هذا النحو لا يتم إلا من فوق أرضيه صلبه ولا ينم إلا عن مركز قوة.

ومن كان يقذف بالحق قذفا يدفع الباطل ويزهقه من كان يرمى من مركز القوة لا يمكن أن يستعطى الناس أو يسأل العائد - هان هذا العائد أو جل - إلا أن يكون العائد المسئول يرتد إلى الناس أنفسهم موقظاً للنفوس ومذكيا الوجدان ورابطا الأواصر ورافعا دعائم المجتمع.

والسؤال - حينئذ - سؤال بلاغى يوحى بشدة الارتباط وعمق المشاركة بأن الداعية والمدعوين كالجسد الواحد. والسؤال - بهذا التأويل - قريب من قضية

استقراض الله الناس فى قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ المزمل٢٠.

وبقوله سبحانه : ﴿ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ﴾ البقرة٢٤٥، الحديد١١

فهل يسوغ هنا ـ أن نأخذ "القرض" بمعناه الأرضى ؟ وهل يسوغ أن نصيح كما صاحت يهود ﴿ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء ﴾ آل عمران١٨١ ؟ وهل نفهم من تعدد آيات الاستقراض أن شدة الإلحاح ينم عن شدة حاجة الملحف الملح (بضم الميم وكسر اللام وتشديد الحاء)؟ سبحانه هو الغنى له ما في السموات وما فى الأرض.

جوع العين وجوع الفؤاد

والإسلام يربى المؤمن على النزاهة وينشئه على تنزيه البصر والبصيرة عما في حوزة الناس والقرآن يحد للأبصار والبصائر حدودا معنوية قويمة ويلزم المؤمنين باحترامها وعدم تخطيها.

عين المؤمن لا تبغى ولا تعدو ولا تتذبذب ولا تزيغ والمؤمن يقاوم بكل بوادر الزيغ التى تحوم حول عينيه دفعا لأخطارها وخشية أن يفضى ـ ذلك إلى زيغ القلوب وميلها عن الصراط والى زيغ الألباب وتهافتها على القشور والترهات. والزيغ يلد مزيدا من زيغ ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ الصف٥.

واتقاء كل هذا يوجه الله رسوله ـ ومن ورائه كل المؤمنين ـ إلى ضرورة ضبط الحواس وشكم[1] الجوارح حتى تعتدل فلا تزيغ وتعدو ذلك قول الله ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ طه١٣١. ومثل ذلك قوله سبحانه ﴿ لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا

---

(1) شكم الجواد = الجمه وتحكم فى حركته.

مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الحجر٨٨.
وكأن أستدبار النضرة الزائلة والزهرة الخادعة لا يتم إلا بالإقبال الخالص على المؤمنين أولى المبادئ والقيم. ولعل هذا من أسرار اتباع النهى فى (لا تمدن) (ولا تحزن) بالأمر الصادع الرشيد (واخفض جناحك للمؤمنين) ولعله من أسرار الأمر بالملازمة والنهى عن التجاوز وإطاعة الغافلين في قوله سبحانه ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾ الكهف٢٨ وشجبا لكل الدوافع التى قد يظن أنها تبرر استقبال الازدهار والمزدهرين والترف والمترفين يدفع الرسول بأسلوب التلقين ـ إلى أن يصيح بين المزدهرين بصيحة الحق ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ ﴾ الكهف٢٩.

هكذا يحد المولى الحدود للبصائر والأبصار حتى لا تنزلق فى نوبة زيغها إلى وهدة المحن والفتن والشبهات ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ ﴾ آل عمران٧.

والإسلام يأمر بالرضا بما قسم، ويغرى بالقناعة بما أتيح بعد بذل الجهد واتخاذ الأسباب

والقناعة بما قسم، والرضا بما قدر من خير، أو شر يورثان سكينة واستقرارا واطمئنانا.

والاطمئنان والسكينة والاستقرار هى[1] قرة عين البشر ومهفا فؤاد كل إنسان :-

---

[1] قرة العين . استقرارها، وأطمئنانها، ورضاها، ونبذها للتذبذب، والزيغ. والمادة (قر) توحى بالبرودة التى تثلج الصدر، وبالموضع الذى يهب الأمن اذ القرار المطئن من الأرض. وتوحى بالثبات وانقطاع أسباب الهلع. تقول: قرت عينه، تقر، قرة، وقرورا إذا هدأت أو رأت ما كانت تتشوق إليه فالمادة تدور حول الرضا والهدوء.

١ – قرة العين مهفا أفئدة عباد الرحمن ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾ الفرقان٧٤.

٢ – وإليها هفت نفس امرأة فرعون وهى تتشبث بموسى وتغرى فرعون باستحيائه ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ القصص٩.

٣– وبها أمتن الله على أم موسى ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ القصص١٣ .

٤ – وهى التى وفرها الله لمريم فى يوم محنتها ساعة زفرت ﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾ قال سبحانه ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾مريم

٥ – وهى ثمرة التشريع ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاء مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاء وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً ﴾ الأحزاب٥١.

وكما أن زيغ البصر يهدد يزيغ القلوب فان قرة الأعين تنبئ عن استقرار النفوس وهدأة الأفئدة أما زيغ العين تدور حتى تفقد صاحبها الاتزان وتصيبه بالدوار فيغدو ويروح أصم أعمى كأن في أذنيه وقراً وفوق عينيه سحابة وحول قلبه أغشية كأنها الأكنة ، ومحشره مع الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكر الله وكانوا لا يستطيعون سمعا.

العين الشبعى هى القريرة التى لا يخطفها بريق ولا يزيغها برج (بفتح الباء والراء والبرج الحس الفاتن) ولا تلهث وراء كل بصيص هى عين المؤمن

والعين الجوعى هى المتوترة القلقة التى لا ترى الأشياء على حقيقتها وفق ما ينبعث منها من شعاع بل وفق ما يعتمل فى نفس صاحبها من نهم أو قرم (شدة الشوق) أو شبق (شدة الرغبة) هى العين التى تجر صاحبها إلى تباب ولا يملؤها إلا التراب هى عين الفاجر.

وتهذيبا للأعين وصدا لشيطانها وإطفاء لنارها أمر الإسلام بالغض ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا ﴾ النور ٣٠ وحذر من النظرة الأولى وشدد النكير على الثانية توفيرا للأمن وضمانا للاستقرار.

المؤمن الحق قريب من الله ويظل يلتمس ـ بأعماله ـ مزيدا من قرب حتى يعلو إلى مقام المعية ويحظى بحب الرحمن، وعندئذ يكون ربه سمعه، وبصره، ويده، ورجله (ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها..)[1].

وأرباب هذه المنزلة الرفيعة دائماً مترفعون ينعمون بحواس شبعي، ويعرفون بالنزاهة، وعفة اليد، والعين، والأذن، واللسان.

والرسول ﷺ أول المؤمنين. صنع على عين الله. واشتمل بمحبة الله ﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ طه٣٩. فهو أذن في ذروة، النزاهة المطلقة والعفة الشاملة، والشبع الفياض وهو في غمرة الحب العلوي غني، ضري (بكسر الضاد، وتشديد الياء) سخي، رزين الانفعال.

---

[1] البخارى كتاب الرقاق حديث ٦٥٠٢ .



وهو ﷺ برغم ثباته، واطمئنانه، وقرة عينه، وكان يتعـوذ كثـيراً مـن شـطط الحواس، وبغي الجوارح، وجوع الفؤاد تنبيهاً، وتعليماً، وتقوياً لنفسيات الأمة:

١- كان يتعوذ من الأربع : من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لهـا[1]. "أخرجـه احمـد، وأبـو داود، وابـن ماجة".

٢- وجوع الفؤاد يورث الجنون العاطفي، ويدفع إلى حماة الرذائـل وتخوفـاً من أن يحق هذا بامته كان يبيت، ويصحو متعوذاً حتى تتلقى عنه أمتـه. (روي الترمذي)، وابن ماجه، وأحمد والنسـائي أن رسـول الله ﷺ كـان يقول : اللهم إني أعوذ بك من الجوع فانه بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة)[2].

٣- وكان ير أن الشرـ يسـتطير إذا بغـت الحـواس، فعتـا الفـؤاد، وعـدت الجوارح. فكان ﷺ وسلم يلقن أصحابه الاستعاذة مـن شرور الـنفس، والجوارح (عن شتير بن شكل بن حميد عن أبيه قال : قلـت يـا نبـي الله علمني تعويذاً أتعوذ به. قال : قل اللهم أني أعوذ بك مـن شر سـمعي، وشر بصري، وشر الناس، وشر قلبي، وشر منبتي) أخرجه أبو داود[3]، والترمذي والنسائي.

---

[1] النسائى فى الاستعاذة من الشقاق والنفاق جـ٨ ص٢٦٣ الحاكم فى المستدرك جـ١ ص١٠٤ وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبى.

[2] ذكره السيوطى فى الجامع الصغير حديث١٤٩٠ بلفظ الأول من حديث طويل وسكت عليه المناوى فى فيض القدير جـ٢ ص١٢٤ وقال رواه الحاكم فى المستدرك عن أبى مسعود رضى الله عنه جـ١ ص٥٣٣ وقال صحيح قال الذهبى فى التلخيص حميد متروك أ. هـ .

[3] مع الدعاء للطبرانى حديث١٣٨٩ عن حذيفة رضى الله عنه قال محققه اسناده ضعيف فيه الحسن بن أبى جعفر وهو ضعيف وهانى بن يحيى ذكره ابن حبان فى الثقات وقال يخطىء جـ٣ ص١٤٤٩.

٤- وكان ﷺ يستجير من خائنة الأعين، ودخن الصدور، ويجهر بهذا حتى تعلم الأمة، وتعي (روي البيهقي عن أم معبد قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: اللهم طهر قلبي من النفاق، وعملي من الرياء، ولساني من الكذب، وعيني من الخيانة، فانك تعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور)[1].

٥- ورسول الله ﷺ يشيد بالعفة، ويرفع المتعفف الأصيل، وينفر من الخيانة، ويوعد الخائن الوضيع.

في حديث يرفع على النظار مشهد الجنة، والنار، ويصنف أهل المرتفقين إلى أصناف (روى مسلم عن عياض بن المجاشعى قال: قال رسول الله ﷺ: أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط، متصدق، موفق ورجل رحيم، رقيق القلب لكل ذي قربي ومسلم، وعفيف متعفف، ذو عيال، وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زبر له[2] الذين هم فيكم تبع لا يبغون أهلاً، ولا مالاً، والخائن الذي لا يخفي له طمع وإن دق الاخانه، ورجل لا يصبح، ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك وذكر البخل أو الكذب، والشنظير الفحاش[3] "الشنظير سيء الخلق، والمتمعن في الصفات التي ذكرت في الحديث يتبين ـ بلا عناء ـ أن خلال أهل الجنة تنم عن شبع الفؤاد وان خصال أهل النار تشى بجوع الفؤاد.

هكذا يربي رسول الله ﷺ الأمة على الترفع، والعزة، ويهديهم إلى أشفية تكفل الصحوة والسداد، والصحة النفسية، فهل يعقل بعد هذا أن نظن أن

---

(1) رواه الخطيب والحكيم الترمذى فى النوادر كلاهما عن أم معبد الكعبية التى نزل عليها فى الهجرة قال الحافظ العراقى: سنده ضعيف فيض القدير للمناوى شرح الجامع الصغير جـ٢ ص١٤٣ حديث١٥٢٩.

(2) لا زبر له بفتح الزاي وإسكان الباء أي لا عقل له يزبره ويمنعه مما لا يرضي وقيل أيضاً هو الذي لا مال له.

(3) مسلم كتاب الجنة وصفة تعميمها وأهلها حديث٢٨٦٥ عن عياض المجاشعي.



رسول الله ﷺ يطلب المحاباة أو التحبب إلى أهله؟ كيف وقد روي احمد عن أبي ذر قال: دعاني رسول الله ﷺ وهو يشترط على "أن لا تسأل الناس شيئاً" قلت نعم. قال " ولا سوطك أن سقط منك حتى تنزل إليه فتأخذه"[١].

إن الزهد فيما في حوزة الناس من مادة، أو حول، أو طول، أو جاه أدعي إلى أن تحب، وتكرم مصداق ما روي الترمذي ، وابن ماجة عن سهل بن سعد قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله : دلني على عمل إذا أنا عملته احبني الله، واحبني الناس، قال : أزهد في الدنيا يحبك الله، وأزهد فيما عند الناس يحبك الناس[٢].

التجرد والترفع سنة المرسلين

المرسلون صلوات الله عليهم يتميزون بالتجرد لله، والترفع الخالص عما في حوزة الناس، فهم في مسيرتهم الشاقة المضنية متوكلون محتسبون، وقطعاً للنوازع الغرزية التي قد تشد إلى الأولاد وتشغل بأمر توفير تراث يضمن لهم المستقبل ويهيئ لهم عيشة رغدة. وحتى تتوفر كل طاقاتهم للدعوة خصوا (بالبناء للمجهول) بأنهم لا يورثون "نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة" وهم إذ يلزمون أنفسهم بهذا، لا يكبتون هذه النوازع الفطرية في غيرهم، بل ينمون الفطرة، ويعلون الغريزة، ويوصون بالاهتمام بالوارث والميراث "انك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس"[٣].

وتجرد المرسلين لله يجعلهم فوق المشاعر القبلية، وفوق مقتضيات الانتماء إلى بيت أو رهط : ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا

---

(1) المسند جـ٥ ص١٧٢.

(2) سبق تخريجة

(3) البخارى كتاب الجنائز حديث١٢٩٥ مسلم الوصية حديث١٦٢٨ عن سعد بن أبى وقاص.

وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ [٩١] قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾هود٩١-٩٢.

وترفع المرسلين ينجلي في صيحاتهم المتتابعة التي تنم عن الورع، والتنزه، والاستغناء بالله :

١- يتجلي في صيحة نوح التي تزري بالمال، وتعلي شان خلة الإيمان ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ [٢٩] وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾هود. ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾الشعراء١٠٩.

٢- وفي صيحة هود التي تعلن ترفعه، واحتسابه، واستغناءه بالله ﴿يَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾هود٥١

٣- وتتابع الصيحات نفسها على لسان صالح، ولوط، وسائر المرسلين.

٤- ويجابه محمد ﷺ عنت المشركين، وتردد الحائرين بصيحة الرفعة، والعفة، والنزاهة، والاحتساب مؤتمراً بأمر الله، منتهجاً نهج إخوانه المرسلين ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاء أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ الفرقان٥٧ ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ ص٨٦. ﴿ أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ﴾ الأنعام٩٠ ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ سبأ٤٧.

ولقد عرف المشركون ـ بالممارسة ـ عفة رسول الله، وترفعه، وجاءت هذه الصيحات مؤكدة.. وبناء على هذا الأمر الذي تحقق، وتأكد، يرفض القرآن صدودهم، وأعراضهم، في أسلوب استفهامي، إنكاري، تهكمي، ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ



أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ الطور ٤٠ ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ المؤمنون ٧٢ .

وعلي ضوء سنة المرسلين.. واسترشاداً بهذه الآيات البينة التي تجل مقام المرسلين عن أن تتحرك نفوسهم أو تمتد أعينهم إلى أوعية الناس.. يمكن أن ننظر مرة أخري في النص الكريم الذي استقطبنا واستوقفنا هذا الوقوف الطويل:

" قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربي "

ونبادر فنستبعد ما لاكه المستشرقون، ورددته المتصوفة من أن الآية تجعل ود أهل قرابة الرسول ثمناً لدعوة الخير.

وترفض تلك الأحاديث التي سيقت لدعم مذهبهم، ورأيهم الهزيل "إلا أن تودوا أهل قرابتي" من مثل ما رووا معزوا إلى رسول الله (حرمت الجنة على من ظلم أهل بيتي، وآذاني في عترتي. ومن اصطنع صنيعة إلى أحد من ولد عبد المطلب ولم يجازه فأنا أجازيه عليها غدا يوم القيامة إذا لقيني)[1]. ومن مثل:- (من مات على حب آل محمد مات شهيداً، ومن مات على حب آل محمد جعل الله زوار قبره الملائكة، وداره الجنة، ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه : أيس اليوم في رحمة الله[2] ..... ومن مات على بغض آل محمد لم يرح رائحة الجنة، ولا نصيب له في شفاعتي)[3]. هذه ومثلها من وضع غلاة الشيعة وجهلة الصوفية.

---

[1] ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات بمعناه. "حشر يوم القيامة يهودياً" قال العقيلى ليس لهذا الحديث أصلاً ورديف كان من الغلاة فى الرفض جـ٢ ص٦.

[2] المصدر السابق .

[3] ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات جـ٢ ص٤ بمعناه قال ابن عدى: هذا حديث باطل وضعه شيخنا عبد الله بن حفص أ. هـ .

والنفسية العربية ـ يومئذ ـ لم تكن مستعدة لتقبل هذا التفسير الصوفي، الشيعي. فقد ورد أن الآية لما نزلت قال قوم : ما يريد محمد إلا أن يحثنا على قرابته من بعده. فأخبر ﷺ بأنهم اتهموه فتلا قول الله ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ الشوري٢٤.فلما ندموا تلا قوله سبحانه ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾الشوري٢٥.

والمقبول أن الرسول ﷺ :

١- أراد أن يعلي أحاسيس المودة التي كانت تتحكم فيهم، وتحركهم أحياناً إلى الشر ومهاوي الشرك. ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾العنكبوت٢٥. أراد أن يستثمرها في الخير.

وانطلاقاً من هذا اهتم ﷺ بإثارة عاطفة الرحم، وأواصر القربى لتتحرك في جميع الاتجاهات وناشد قومه المودة ان لم تكن بحق النبوة فبحق القرابة. وسألهم أن يصلوا الرحم المشتركة فلا يكون غيرهم أولى منهم بحفظه، ونصرته. ودعاهم إلى رعاية حق الدم، والنسب بلا تجهم، ولا تنكر ولا إيذاء، ولا صد، ولا تعويق. ونادي مناشداً قومه "المودة في القربى" ــ أن يودوه لقرابته ـ فالرسول كان أوسط الناس في قريش. وكان يمت بصلة لكل بطون قريش. فإذا تضافروا على إعطائه حق القربى أمن جانبهم، وضمن أن ينطلق في طريق الدعوة غير معوق "بالبناء للمجهول ".

فوق أنه ﷺ كان أولي الناس بالمؤمنين ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ الاحزاب٦. وهو قطب الرحي في الاخوة التى شد أواصرها الإيمان. ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾الحجرات١٠. وهو ﷺ ـ بهذا الاعتبار ـ ينبغي أن يتبوأ ذروة القلوب "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ماله، وولده، والناس أجمعين "[1].

[1] متفق عليه لفظ البخارى كتاب الإيمان حديث١٥ عن أنس رضى الله عنه ومسلم كتاب الإيمان حديث٤٤.

وتأويل الآية على هذا النحو هو الذي عليه الأئمة الراسخون أخذا بما رواه البخاري، واحمد عن ابن عباس أنه سئل عن المودة في القربى فقال سعيد بن جبير: "القربى آل محمد" فقال ابن عباس : عجلت. إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة فقال: إلا أن تصلوا ما بيني، وبينكم من القرابة[1].

فالقربى على هذا مصدر كالقرابة. والاستثناء منقطع كما في قوله سبحانه ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاء أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ الفرقان٥٧. فاتخاذ السبيل إلى الله ليس أجراً. كذلك المودة في القربى. فالرسول لا يسأل أجراً ولكنه يطلب إعمال مقتضيات الرحم والقربى ويسأل أن يكفوا عنه أيديهم، ويذروه إن لم ينصروه.

والآية مكية نزلت قبل ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾المائدة. والرسول ـ في مكة ـ كان يشكو إلى الله ضعف قوته، وقلة حيلته، وهوانه على الناس. فلا غرابة إذا راح يهدىء من ثائرتهم بشتى الطرق إلى أن يهيئ الله أمراً كان مفعولاً. إلى أن تتدفق روافد القوة، وتتفتح مسالك النصر.

٢- ومما قيل : إن المعني "إلا أن تتوددوا إلى الله بالطاعة والتقوى وشدة الحب لله".

٣- ومما قيل : أن المعني "الا أن يود بعضكم بعضاً بحكم وشيجة الإيمان".

٤- وقيل : أن النص دعوة إلى المحافظة على ما بينهم من صلات، وروابط وذلك لأن إيذاءهم رسول الله حري ان يثير ثائرة عشيرته الأقربين وحينئذ تحدث المواجهة، وتنقطع الأواصر.

---

[1] البخارى المناقب حديث٣٤٩٧ كتاب التفسير حديث٤٨١٨ سورة الشورى الترمذى تفسير سورة الشورى المسند حـ٢ ص٢٢٩، ٢٨٣ عن ابن عباس رضى الله عنهما.



وبهذا التأويل يكون عائد المودة راجعاً إلى المدعوين لا إلى الداعي وحده. وهذا هو المطابق لمعني قوله تعالي : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ سبأ٤٧.

تحقق أن رسل الله أباة، مترفعون، ذوو شمم.

وهم صلوات الله وسلام عليهم يحاولون أن يضفوا على أتباعهم من فيض هذه الخلال، وان يربوهم على عزة النفس، والزهادة فيما عند الناس.

ومحمد ﷺ بوىء[1] (بالبناء للمجهول) ذروة[2] هذه الصفات، ومكن (بالبناء للمجهول) على جادة[3] الاحتساب، وغني النفس، والاكتفاء بالله.

ولقد جاهد ﷺ ـ كغيره من الأنبياء عليهم السلام ـ كي يصهر صحابته في بوتقة هذه السجايا وأن يحقنهم بترياق[4] الإباء، والعفة، والحب.. وأن يحصن الأمة ضد أدواء الخيانة، والنفاق، وشر الحواس، وجوع الفؤاد الذي يورث الشره، واللهاث. والله تبارك وتعالي حد (بفتح الحاء وتشديد الدال) لرسوله ﷺ ـ من أول وهلة ـ حدوده وبين له أبعاد رسالته ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ الرعد٧. ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ الشوري٤٨. وأدبه بآيات شافية تمنعه من أن يضيق صدره، أو يتشعب فكره، أو تتذبذب نفسه، وتطير شعاعاً إن هم اعرضوا أو استغشوا ثيابهم، وأصروا، واستكبروا استكباراً، ولقنه ربه أصول الحسبنة ليلوذ بها كلما اكفهرت الأجواء ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ التوبة١٢٩.

---

(1) تمكن، واحتل .

(2) ذروة الجبل أعلاه .

(3) الجادة: الطريق.

(4) الترياق: الدواء.

والاحتساب أصل من أصول الإسلام ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ الأنعام١٦٣.

ولخطورة شأن الاحتساب، وإقامة للمؤمن على درب التوكل الشرعي، تعددت الآيات التي تأمر بالاحتساب، وتحث على الحسبنة، وتثني على المحتسبين، المحسنين.

١- تارة يثير القرآن ـ بنداء النبوة ـ كل قوي العزم في نبيه عليه الصلاة والسلام، ثم يلقي إليه أنه مولاه وكافيه، وعاصمه ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الأنفال٦٤[1].

٢- وتارة يؤكد القرآن شمول رعاية الله لرسوله. يرد عنه كل كيد، ويدحض كل مكر، ويوفر لنبيه الجانب الآمن المنيع ﴿وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ الأنفال٦٢.

٣- وآنا يؤكد القرآن منعه المتوكلين، ويجعل نصرة المتقين وكفايتهم عهداً، وقانوناً لا يتخلف ﴿...وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ الطلاق٢: ٣.

٤- ومرة يشيد القرآن بموقف مؤمنين ارتفعوا بإيمانهم فوق القروح، والجروح، وسما بهم يقينهم، واعتزازهم بربهم إلى مستوي رفيع تتضاءل معه جموع الناس، وتهون تهديداتهم ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ للهِ وَالرَّسُولِ مِن

(1) "من اتبعك" معطوفة على لفظ الجلالة. ولا يقدح هذا في حقيقة التوكل لأن المؤمنين أداة من أدوات نصرة الله لرسوله، وذكروا على سبيل الامتنان، والتبصر بنعمة الله الماثلة متمثلة في المؤمنين.

بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾آل عمران.

٥- وأخرى يعرض القرآن بنهم الحواس، وجوع الفؤاد، مبيناً أن الخير كله في الترفع، والرضي، والاحتساب ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ ﴾التوبة٥٩.

٦- حتي إذا ما توطدت جذور الحسبنة، ووجدت النفوس بردها، وأيقنت بعظمة الاحتساب، وجلال أمر المحتسبين.. لقن الله رسوله، والمؤمنين أن يعلنوها عالية، ويطلقوها حاسمة صادعة ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾التوبة١٢٩.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ الزمر٣٨.

هكذا يؤصل القرآن الكريم معاني الرفعة، والعزة، والعفة، وإسلام الوجه للمولي في قلوب المؤمنين وبأجنحة هذه المعاني الأصيلة يحلق المؤمنون ليبغوا مقام "حسبنا الله". سنية، رخية الشذي، عزيزة المنال على غير المؤمنين.

ورسل الله من هذا المقام كانوا يواجهون الجاحدين، ويخاطبونهم ولكن باللغة التي يفهمونها، كانوا يعبرون عن اكتفائهم بالله، وقناعتهم بنفحات مقام "حسبنا الله" بمثل " يا قوم لا أسألكم عليه أجراً...".

أ. والمصطفي ﷺ نَهج نهج المرسلين عليهم السلام، فأكد لقومه أنه محتسب، غني بالله، وأن عائد المودة التي ينشدها ملحاً راجع إلى الناس أنفسهم ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾سبأ.

ب. وليعمق جذور هذه المعاني في النفوس يؤكدها بالأسلوب التلقيني موحياً بان التطلع إلى ما يختاره الناس تكلف، وتكلف لا يليق بالأنبياء﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ ص٨٦

استطراد

والتكلف هو تخرص ما لم نؤمر به، والتكلف بمعنييه كريه مرفوض. وصحابة رسول الله ﷺ منذ وقفوا على قول الله ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ ظلوا يتناصحون بالاعتدال ويتناهون عن التكلف، ويربئون بالنفس المؤمنة أن تذكر في عداد المتكلفين:

روي عن ابن مسعود انه قال : من سئل عما لا يعلم فليقل لا أعلم، ولا يتكلف، فان قوله "لا اعلم" علم، وقد قال الله لرسوله ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾[1].

ومما روي : للمتكلف ثلاث علامات. الأولي "انه ينازع من فوقه" ومعني ذلك انه غير جهول يتجاوز حجمه ولا يعرف قدر نفسه. والثانية "انه يتعاطي ما لا ينال" ومعني ذلك انه يهفو إلى السراب، ويمسي ويصبح كالكلب إن تحمل

---

[1] البخارى كتاب التفسير قال الله عز وجل لنبيه "قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين" أثر٤٨٠٩ جـ٨ ص٤٠٩.

عليه يلهث أو تتركه يلهث، ومن بات كذلك فقد أذل نفسه إذ حملها ما لا تطيق[1]، وصدق رسول الله : لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه، قالوا وكيف يذل نفسه يا رسول الله ؟ قال : يتحمل من البلاء ما لا يطيق. والثالثة "انه يقول ما لا يعلم" ومعني هذا إنه يخالف صريح الإسلام الذي يحتم على المسلم أن يصدر فيما يقول، ويفعل عن علم ائتمار بقوله سبحانه ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ الإسراء٣٦ وقوله سبحانه ﴿ نَبِّؤُونِي بِعِلْمٍ... ﴾ الأنعام١٤٣ وقوله ﴿ لَيْسَ لَكَم بِهِ عِلْمٌ ﴾ آل عمران٦٦. والذي يتزحزح عن العلم إما ان يبني على الخرص، والظن. والظن لا يغني من الحق شيئاً، والقرآن يشجب كل منطق أو أمر عماده الظن ما لهم بذلك من علم ان هم إلا يخرصون ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ الزخرف٢٠.﴿ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾الجاثية٢٤.. إلى غير ذلك من الآيات.

وإما أن يهوي إلى غيابه الجهل فيرجم بالغيب، ويهرف بالحمق، ويفتري الكذب، ويقع تحت طائلة الآيات التي تتهدد الراجمين، وتنذر المغتربين، وما أكثرها.

وأولئك الذين يتأولون القرآن بغير علم، ويتقولون على رسول الله، ويبتدعون فيما تخالف طبيعة الإسلام ويستولدون مثل قول الله: ﴿ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ الشورى٢٣ ولائد ممسوخة...الخ أولئك هم المتكلفون.

---

[1] أخرجه الترمذى من حديث حذيفة رضى الله عنه حديث٢٢٥٤ كتاب الفتن وقال: حديث حسن غريب تميز الطيب والخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث ص١٩٢ طبعة صبح ١٣٨٣هـ ١٩٦٣م المسند بلفظ ومسلم جـ٥ ص٤٠٩ ابن ماجه حديث٤٠١٦ كتاب الفتن.

والرسول ﷺ منزه عن التكلف. وهو ﷺ ان سأل الأشحة المشركين مادة أو معني فقد تعاطي ما لا ينال وأهدر وقت الدعوة سدي، وحاشاه أن يكون كذلك. كيف وهو الذي أنكر التكلف في أهون صورة كما جاء انه قال: خرج رسول الله ﷺ في بعض أسفاره فسار ليلاً، فمروا على رجل جالس عند مقراة له (حوض ماء) فقال عمر يا صاحب المقراة : أو لغت السباع الليلة في مقرأتك ؟ فقال الرسول ﷺ لا تخبره يا صاحب المقراة. هذا متكلف لها ما حملت في بطونها، ولنا ما بقي شراب طهور[1].

وإذا تأكد سمو رسول الله ﷺ عن التكلف، وثبت ترفعه عما في حوزة الناس أمكننا أن نري المحاجة القوية التي تكمن وراء ذلك الاستفهام الإنكاري التهكمي الذي صدرت به آية من الآيات التي تنفي عن رسول الله أن يسأل أجراً ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ الطور٤٠[2].

نعم إذا تأكدت نزاهة رسول الله حق للقرآن ان يندد بالمناكصين الأشحاء وحق له أن يشيد بما اعد الله لرسوله: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاء جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً ﴾ الفرقان١٠.

حق له أن يقول: ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ المؤمنون٧٢. وذلك في سياق آيات تسفه الأحلام، وتزدري الأهواء التي لا يقاس بها حق، ولا يقوم عليها صلاح ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ

---

(1) الموطأ كتاب الطهارة أثر رقم ١٤ فقال عمرو بن العاص رضى الله عنه " يا صاحب الحوض هل ترو حوضك السباع؟ فقال: عمرو بن الخطاب رضى الله عنه يا صاحب الحوض: لا تخبرنا فإنا نرد السباع، وترد علينا ورواة ابن ماجه كتاب الطهارة حديث٥١٩ عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه. أن النبى ﷺ سئل عن الحياض التى بين مكة والمدينة تردها السباع والكلاب والحمير فقال ﷺ "لها ما حملت فى بطونها ولنا ما غير طهورها" قال فى الزوائد فى اسنادة عبد الرحمن بن زيد من اسلم. روى عن أبيه أحاديث موضوعة وقال ابن الجوزى: أجمعوا على ضعفه ابن ماجه جـ١ ص٧٣.

(2) لا يتكلفون بذلاً، ولا يتحملون مغارم، بل هم الغانمون، الظافرون.

بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾المؤمنون٧٠: ٧٢.

اي لو كان الحق ما تراه الأهواء المختلفة المتضاربة لفسد نظام العالم ولو نزل القرآن بما يرون، ويهوون، لفسدت السموات، والأرض، ومن فيهن.

والذين يريدون أن يجري الحق وفق أهوائهم حمقي لا ينـدبون لمكرمـة، ولا يسألون (بالبناء للمجهول). محمدة طالما ظلوا عبيد الهوى، واسري الشهوات.

والرسول ﷺ ـ بكل ما جـاء بـه ـ يريـد أن يفصـم العـرا التـي تشـدهم إلى الشهوات والأهواء. وهو حيث يذكرهن الرحم، ويسألهم المودة في القربي، إنـما يحرك كامن الخير، ويثير وشائج الدم الآسن (الخامد) بين الجـوانح. لعلـه ـ إن نجح في إثارة الكوامن ـ أن يستنقذهم من نير الهوى وأغـلال الشـهوة ـ وأسـار التقاليد.

وبذرة الخير كامنة في كل بني الإنسان، فان تعهدت برفق ووليت حتى ترق، أينعت، وازدهرت وأثمرت الخير الغامر الـذي يعـم مرافـق الحيـاة، وجوانـب المجتمع.

وابتغاء هذا كان رسول الله ﷺ يناشدهم الرحمة، ويسـألهم المـودة، ويمنـيهم بخير الدارين.



مفهوم الظرفية "في القربي"

وإذا رجعنا البصر في الآية الكريمة "قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى" تبيناً أننا أمام أسلوب فريد جعلت فيه كلمة " القربى " ظرفاً للمودة والمتتبع لاستعمالات كلمة " القربى " في القرآن يري أنها لم ترد إلا مسبوقة بمضاف هو "ذو" منصوبة أو مجرورة، مفردة أو مجموعة، أو مسبوقة بـ "أولو" مرفوعة، أو منصوبة، وتستحضر مثل قول الله ﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ.. ﴾الروم٣٨. ﴿ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى ... ﴾النحل٩٠. ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى ... ﴾البقرة١٧٧. ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُواْ الْقُرْبَى ... ﴾ النساء٨. ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى ... ﴾التوبة١١٣ الخ اذن لماذا انفردت آيتنا بهذا الاستعمال ؟ ولم سبقت كلمة " الْقُرْبَى" هنا بالظرف "في" الذي أفاد ان القرابة وعاء للمودة؟ وهلا قيل : إلا المودة لذي القربى أو لذوي القرابة حتى يلتقي التعبير مع سائر المواقع الأخرى؟ لا ريب أن وراء هذا الاستعمال الفريد سراً فالقرآن المعجز يفرد الكلم بميزان، ويجمعها بميزان، ويعرف بميزان وينكر بميزان، ويضيف بميزان، ويجرد بميزان، ويجر الكلمة بقدر، ويجعلها ظرفاً ومظروفاً بقدر.

من قرآن يقري[1] مريديه، ويبسط موائد الحكمة، والرحمة لوارديه، ومن آيات هذا التعبير الفريد تقربي بالاحتساب، وتؤكد منعة المحتسبين المتوكلين . سرت نفحات تشد عرا[2] النفس الشاردة. وتضبط لفتات القلوب القلقة حتى لا تتناثر بددا[3] بكل واد شعبة.

---

[1] قري الشئ أكرمه

[2] جمع عروة. والعروة من الثوب موضع الزر.

[3] متفرقة

وتراءت خلال النفحات أنفس دنيا تغط في الغفلة، وتغوص في الوحل ولاحت أنفس عليا تدرج نزيهة، رقيقة، غنية، نحو مقام "حسبنا الله " نستهدي قوله سبحانه : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾التوبة١٢٩. وتستشعر[1] قوله سبحانه : ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾الشورى٢٣ ويروعنا ونحن نتدبر شعار المصطفين، ونقدر نظامه [2]، وكلمة عقدها الفريد بحباته الخرائد[3].

ولقد علمنا أبعاد اسلوب التلقين وعرفنا ايحاء كلمة ﴿قُل﴾.

وبقي ان نقف امام كلمة " القربي" التي وردت مسبوقة بحرف يفيد الظرفية "في" فبدت وكأنها وعاء حشوه المودة، والبر.

فالمودة ـ بمقتضي هذا التركيب ـ روح كل قربي. وكل قرابة لا تورث التواد قرابة جوفاء، ميتة لا يعتد بها، لأن العبرة بالمودة التي تعمر القرابة، وتزكي اعماقها.

والذين ينعمون بقرابة تجود بالمودة، وتفيض بالبر هم "العترة" والعترة من معانيها : أنها قلادة تعجن بالمسك. فالوحشية التي تسخو، وتزهو، وتطيب، وتعلو حرية بان تستعار لها كلمة "العترة".

ورسول الله ﷺ كان يسع العالمين بقلبه الكبير الفياض. وكان يأسي بالغ الأسي كلما أعرض قومه عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة، فرت من قسورة.

ولكم رأينا القرآن الكريم يخفف من لواعجه، ويحد من أساه، ويكبح جماح مشاعره بمثل "لعلك باخع نفسك الا يكونوا مؤمنين " "فلعلك باخع نفسك

---

(1) تتخذه شعاراً.

(2) النظام كل خيط ينظم به لؤلؤ ونحوه .

(3) جمع خريدة والخريدة اللؤلؤة.

على أثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفً" ولكم وقفنا امام جوامح كلم رسول الله ﷺ وهي تصور المعرضين فراشا (بفتح الفاء) يدنو بها الحتف إلى جاحم[١] تتاجج ناره. (عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً فلما اضاءت ما حوله جعل الفراش، وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها وجعل يحجزهن، ويغلبنه فيتقحمن فيها، فأنا أخذ بحجزكم عن النار وانتم تتقحمون فيها)[٢] متفق عليه.

ومحمد ﷺ بمشاعره الانسانية الفياضة عترة قريش، وعيبتهم[٣] التي تبث الروح، وتزخر بالمودة، والبر أما كفار قريش فما كانوا ليرتقوا إلى مكانة العترة، والعيبة، كيف وقرابتهم متجردة من الروح وبواطنهم تغلي بالحقد والغل والشنآن ؟

وقريش ـ برغم هذا ـ كثيراً ما ناشدت رسول الله ﷺ الرحم، وكثيراً ما ضربت ـ له ـ على أوتار القرابة : والأبوة، والدم المشترك استغلالاً لمشاعره العليا أو تقية أو سياسة، وخديعة، ومكرا رجاء أن يكف رسول الله ﷺ عنهم، ويعفو :

١ – ناشدوه الرحم حين أصيبوا بالقحط، فرق، ودعا لهم بالخصب رعاية للرحم.

٢ – وتوسلوا اليه بحق العمومة والأخوة والبنوة أن يكف عن دعوته، ويطلب ما يريد. (روي ابن اسحاق بسنده : أن عتبة بن ربيعة ـ وكان سيدا في قومه ـ قال يوماً وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده. يا معشر قريش. ألا أقوم إلى محمد فأكلمه، وأعرض عليه امورا

---

(1) الجاحم = الجحيم.

(2) البخارى كتاب الرقاق حديث٦٤٨٧ ، مسلم كتاب الفضائل حديث٢٢٨٤ عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(3) عيبة الرجل موضع سره ن وثقته.

لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء، ويكف عنا ؟ قالوا : بلي يا أبا الوليد. قم إليه فكلمه. فقام إلى رسول الله ﷺ فقال : يا ابن أخي، أنت منا حيث قد علمت من البسطة في العشيرة، والمكان في النسب، وانك قد أتيت قومك بامر عظيم، وأنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك. فرقت جماعتهم، وسفهت احلامهم، وعبت آلهتهم، ودينهم وكفرت (بتشديد الفاء) من مضي من آبائهم، فاسمع مني يا ابن اخي...).

ومضي أبو الوليد يعرض على رسول الله، ويقترح عليه باسلوب متلطف رفيق آملاً أن يصل بالملاينة والرقة إلى ما لم يصلوا إليه بالمواجهة والمصادمة، والنعيق.

وأبو الوليد وهو يتملق رسول الله بكلماته المعسولة إنما كان يلوح بقرابة قاحلة جدباء خلت من المودة فخلت من الروح. وأبو الوليد وعصبته ـ وإن كانوا يمتون إلى رسول الله ﷺ لا يمكن أن يكونوا عترة محمد لمجرد تلاعبهم بكلمات : يا بن أخي، أخ كريم وابن اخ كريم.. الخ تلك العبارات المتملقة التي لا تحوي إلا الجرس الرنان.

والقرآن حين أدخل أداة الظرف "في" على كلمة " القربي" إنما عفاهم إلى أن يملئوا الكلمة بالزيت المضيء ذلك شان القرابة التي تربط بين الأناسي، أما القرابة الخاوية الباردة فهي لا تليق إلا بالأنعام. فلا عجب. روى أحمد، والحافظ الطبراني، عن ابن عباس ما رووا من أن المعني "لا أسألكم عليه أجراً إلا ان تودوني وتصلوا ما بينى وبينكم من.." القرابة اذن وعاء، ومنبع.

ومودة رسول الله ﷺ تكمن في اتباعه، ومؤازرته. ونشر دعوته. هذا هو حب رسول الله وهذا ـ في الوقت نفسه ـ عين حب الله ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ آل عمران٣١.

واعتباراً لهذه العلاقة الوطيدة بين حب الله وحب رسوله فسر قوم الآية ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ بحب الله، والتقرب اليه.

روي الامام أحمد عن ابن عباس (أيضاً) أن النبي ﷺ قال : لا أسألكم على ما أتيتكم به من البينات والهدي أجراً إلا أن تودوا الله تعالي، وأن تتقربوا اليه بالطاعة[1].

ولقد ترددت في تأويل الآية أقوال لا تثبت عند التمحيص منها:

١- ما زعم من أن الآية نزلت توجيهاً لمن فاخر العباس من الانصار. ومثل هذا لا يعول عليه، لأن السورة مكية، والآية ذكرت في سياق آيات لا تمت إلى قضية المفاخرة بصلة.

٢- ومنها ما رواه ابن أبي حاتم من أن الآية لما نزلت قالوا : يا رسول الله، من هؤلاء الذين أمرنا بمودتهم ؟ قال : فاطمة، وولداها. اذ من الثابت أن فاطمة تزوجت بعد بدر في السنة الثانية من الهجرة، فلم يكن لها في مكة زوج ولا ولد. ذلك فوق أن اسناد الخبر شيعيا لا يقبل خبره هو "حسين بن الاشقر".

قال ابن تيمية رضي الله عنه في "منهاج السنة"

١. (ان السورة مكية باتفاق أهل السنة. ونزلت قبل أن تتزوج فاطمة. فكيف تفسر الآية بوجوب مودة قرابة لا تعرف، ولم تخلق ؟).

---

[1] ذكره ابن حجر فى فتح البارى جـ٨ ص٤٢٧ وقال وفى اسناده ضعيف أ. هـ .

المعول اذن على ما أثر عن ترجمان القرآن، وأعلم أهل البيت "ابن عباس رضي الله عنهما".

٢. ويري ابن تيمية أن جميع ما في القرآن من توصية بحقوق ذوي قربي الرسول ﷺ وذوي قربي الانسان انما قيل فيها (ذوي القربي) والعدول عن هذا إلى ﴿فِي الْقُرْبَى﴾ يستوجب النظر. ذلك انه لو أريد المودة لهم لقيل. "المودة لذوي القربي" ولم يقل "في القربي" فانه لا يقول من طلب المودة "أسألك المودة في فلان" ولا " في قربي فلان" ولكن " أسألك المودة لفلان".

١. فوق ان النبي لا يسأل على تبليغ رسالة ربه أجراً البتة بل أجره على الله كما قال: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ ص٨٦.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ القلم٤٦.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ سبأ٤٧.

٢. والقربي ذكرت معرفة بأل فهي اذن قربي معهودة معروفة لدي المخاطبين وهي القربي التي بين الرسول ﷺ وبينهم) انتهي الاسترشاد بكلام الامام أبن تيمية.

وبعد فان المسلم تدعمه مقومات منها الايمان، والأخوة، والحب في الله، والبغض في الله.. الخ ومقومات المسلمين تظل تتجاذب، وتتعالي حتى تتجاوز بالمسلمين مستوي القربي: هذا المستوي الذي يقتضي - بالضرورة - المودة في القربي.

المودة في القربي سلوك يغذي الانفعال بالقربي، ويفضي إلى مزيد من التآلف والتداني - إلى مزيد من قربي فمزيد من مودة يصورها الله تعالي في صورة عائد

تقر به عين رسول الله ﷺ اذ نقر به عين المسلمين ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾.

فالقربي هنا أعم مفهوماً، وأرحب أفقاً. فهي تسع العشيرة الأقربين. وتسع كل مفاهيم كلمات القربي التي وردت في القرآن مسبوقة بـ "ذي" أو " ذا" أو "ذوي " أو " أولو "...الخ. وغير مسبوقة. وتسع مفهوم الأرحام، وأولي الأرحام الذين جعل الله بعضهم أولي ببعض.

ولا تزال الكلمة تتسع، وتمتلىء حتى تنظم المسلمين قاطبة، فالاسلام رحم بين أهله، والمسلمون كلهم أخوة بمنطوق القرآن، وصريح السنة، وروح الشريعة الغراء (إنما المؤمنون إخوة) والمؤمن مطالب بأن يدرج مشتملاً بمعاني القربي حتى يدرك منزلة الأخوة الحقة التي أمتن الله بها على العباد ﴿ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً ﴾ آل عمران١٠٣.

حديث ماء خم

كقائل أن يقول : فيم المحاورة والمداورة ورسول الله ﷺ ذكرنا الله ـ صراحة ـ في أهل بيته بعبارات كأنها وصية ضمنية بهم، وذلك في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن يزيد بن حيان قال: (انطلقت أنا وحصين بن سيرة، وعمرو بن مسلمة إلى زيد بن أرقم. فلما جلسنا إليه قال له حصين : لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً رأيت رسول الله ﷺ، وسمعت حديثه، وغزوت معه، وصليت خلفه، لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً. حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ. قال : يا ابن أخي والله لقد كبرت سني، وقدم عهدي، ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله فما حدثتكم فأقبلوا، وما لا فلا تكلفونيه، ثم قال : قام رسول الله ﷺ فينا خطيباً بماء يدعي خما بين مكة والمدينة. فحمد الله، وأثني عليه،

ووعظ، وذكر ثم قال : أما بعد ألا أيها الناس، إنما انا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين، أولهما كتاب الله فيه الهدي والنور، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به، فحث على كتاب الله، ورغب فيه ثم قال : وأهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي (ثلاثاً). فقال له حصين : ومن أهل بيته ؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال : نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده. قال ومن هم؟ قال : هم آل على، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس. قال كل هؤلاء حرم الصدقة ؟ قال نعم)[1].

وهذا الحديث يتخذ منه المستشرقون ومن لف لفهم مدخلاً للطعن في عدالة الإسلام والتشكيك في صدق مبادئه ويتهمون بموجبه رسول الله ﷺ بالمحاباه، وتمييز خاصته، وآله.

ولقد تعرضت لهذا الحديث وقلت : ان رسول الله ﷺلم ينسب في هذا الحديث إلى أهل بيته مزيد فضل يميزهم عند الله ، أو يرفعهم على الناس، ولم يزن لهم بميزان يغاير ما يزن به لعامة المسلمين. كما أنه لم يوص لهم بدنيا زائدة، ولا طلب بهم معاملة خاصة تميزهم، بل لم يزد على ان ذكرنا الله في أهل بيته. وذلك يقتضي ألا نحيف، والا نحابي، وألا نغلو أو نعين عليهم الشيطان. ولعله ـ عليه الصلاة والسلام ـ نظر بفراسة المؤمن فتصور ما سوف يحيق بأهل بيته، ولا سيما من نفوس نفست على بني هاشم شرف النبوة، وورمت أنوفها لما نالوا بمحمد ﷺ من ذكر. فوق أن هذا الشرف الجديد قد يورث بني هاشم شيئاً من الزهو والتعالي الذي يثير نوازع الغيرة، والحسد، والحقد في نفوس الآخرين. وقد يجمح ببني هاشم هذا الشعور فيرون أن ما غمر العرب من سيادة وشرف تراث محمد ﷺ، وأنهم أولي العالمين بتراث محمد عليه الصلاة والسلام. وحينئذ

---

[1] مسلم فضائل الصحابة حديث٢٤٠٨.



نثور الغيرة، وتضطرم الأحقاد، ويحس الناس أن بني هاشم بتعاليهم وخيلائهم أضحوا عبئاً وثقلاً لا يطاق.

ولكل هذه المعاني كان أهل البيت عرضة للكبت، والقهر، والاضطهاد. وكانوا أبعث على القلق، وأحوج للوصية بهم، فلا غرو إذا ذكرنا رسول الله بهم آمراً أن نقيم الوزن بالقسط ولا نخسر الميزان.

والحديث ـ بميزان الجرح والتعديل ـ يبعث على التوقف والنظر. وذلك لأن الراوي الأول للحديث (زيد بن أرقم رضي الله عنه) استبرأ لنفسه حين شكا من كبر السن، وقدم العهد، وخشي طروق النسيان، فكأنه رضي الله عنه يلقي بهذا عن كأهله مسئولية ما يروي تورعاً.

وقد يحلو للبعض أن يحتج بما ورد فى السنن من أن رسول الله ﷺ قال: "والذى نفسى بيده لا يدخلون الجنة حتى يحبوكم لله ولقرابتى"[1] قالها متخوفا من بوادر جفوة وغيرة توشك أن تجتاح بعض القلوب الموتورة يوم تجهم أصحابها لخاصة رسول الله ﷺ وأعرضوا وتغامزوا.

والحديث ـ كما لا يخفى ـ لم يصدر لتحديد سبب حب موجود فعلا ولكنه يرتكز على أمر غير الذى ذكر ولم يسق لايجاد حب معدوم أصلا كى يخلق الود ويزدهر مرتبطا بالسببين المذكورين لأن الحب انفعال غير ارادى ينبثق من عوامل وأسباب هى مركز الدائرة.

---

(1) مسند أحمد عن عبد المطلب بن ربيعه حديث١٧٧٧. لفظه " والله لا يدخل قلب أمرىء إيمان حتى يحيكم لله ولقرابتى أ. هـ وعند الترمذى بمعناه حديث٣٦٩١ ومسند البزار حديث٢١٧٥ مدارِ اسناده علٍى يزيد بن أبى زيان الكوفى ضعيف من كبار أئمة الشيعة لم يرو له مسلم منفردا بل مقروناً بغيره أ. هـ والحديث كما ترى شيعى الرائحة.





وكما أنه يستحيل على أحد أن يخلق حبا في قلب أحد ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ الأنفال٦٣ (اللهم ان هذا قسمى فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما لا أملك)[١] (يا مقلب القلوب ثبت قلبى)[٢].

كذلك من المستحيل فك حب من مركزه ووتده ليشد ويوصل بسبب أخر بمعنى أن أولئك كانوا يحبون ولكن بعوامل أخرى فأراد رسول الله أن يوجه ذلك الحب إلى وجهة صحيحة.

والحق أن الحديث سيق لغير ذلك. فهو يرفض بشدة أن يكون بين المؤمنين تباغض وأحقاد ويستنكر بشدة أن يكون القرب من رسول الله ﷺ سر الحقد وسبب الضغينة.

ونعود فنقول : نحن لا نمنع ان يتمكن من القلوب حب آل محمد القائم على منهج الله ورسوله ولكننا نرى أن حبهم لا يترتب على هذه الآية الكريمة. بل يجرى على قواعد اسلامية عامة منها:

١- أن الحب فى الله والبغض فيه أوثق عرا الايمان

٢- وأن المؤمنين دأبهم التراحم التواصل والتواد (مثل المؤمنين في توادهم.. إلخ)[٣].

---

(1) مختصر سنن أبو داود للمنذرى حديث٢٠٤٧ كتاب النكاح عن عائشة رضى الله عنها قال المنذرى: أخرجه الترمذى والنسائى وابن ماجه وذكر الترمذى والنسائى أنه روى مرسلاً وقال الترمذى المرسل أصح جـ٣ ص٦٤ والمرسل من سلسلة الضعيف .

(2) عن أنس رضى الله عنه الترمذى كتاب القدر حديث ٢١٤٠ جـ ٤ ص ٤٤٢ قال وحديث أنس أصح ثم رواه فى كتاب الدعوات عن أم سلمة حيث ٣٥٢٢ وقال حديث حسن رقم ٣٥٧٨ عن عاصم بن كليب الجرتى وقال حديث غريب من هذا الوجه .

(3) البخارى فى الأدب حديث٦٠١١ مسلم فى البر والصلة حديث ٢٥٨٦.

٣- وأن تيار المودة يسرى بين المؤمنين بفضل الله وكرمه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً ﴾ مريم٩٦. أى حبا تعقد أواصره في السماء ثم ينعكس شعاعه على الأرض أى يحبهم الله ويحببهم إلى عباده.

فى محاولة لتبصير المتخبطين وضبط للفتات الشاردين ذهبنا نستمطر سموات القرآن ونستخلص من أشفيته الرحمانية ما يزكى الجنان ويصقل الوجدان.

وعلمنا ـ يومئذ ـ أن الوشيجة التى لا تفرز التراحم والتحاب والتناصح في الله وشيجة خرقاء جوفاء لا تشى إلا عن حمية الجاهلية وعصبيتها العمياء.

ومثل هذه الوشيجة الخاوية من افرازات التدين الصحيح ومن نضح العواطف السامية سرعان ما تمتلئ بافرازات الغرائز الدنيا وتسيل بالاحقاد والشنآن والأضغان.

ومعجزة القرآن أنه واجه هذه الغرائز الدنيا فطبها وأعلاها فى مجراها ومرساها.

كل ذلك بعد أن نسف شحنات الغى والأثرة والمادانية المستودعة فى الأعماق المتوحلة.

بعد أن فرغها وهيأها لما سيلقى من قول جديد ثقيل عرشه تقوى وايمان وفرشه تناصح وبر وتواد وإيثار هداهم قوله سبحانه ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الحشر٩. وشعارهم قوله سبحانه ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا



شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ الإنسان٨: ١٠. وذكرهم المرتل قوله سبحانه ﴿ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ .

التصدى للغلبين والمبطلين والجاهلين

فقد انتحلوا وحرفوا وأولوا وهم يصولون ويجولون حول قضية "الآل والأهل" وزعموا أن ذوى قربى محمد ﷺ لاطفهم الإسلام ملاطفة مكشوفة وخصهم بإرادة سامية تمنع عنهم صواعق الدنس والرجس حرك ألسنة كل المسلمين كى تستمطر الرحمات والبركات التى تغدق عليهم إغداقا كلما تشهدنا أو صلينا وسلمنا على النبى الكريمﷺ

والحق أن كلمة ﴿ آلُ ﴾ لا تلتحم بذوى الرحم الاقربين بحيث تستأثر بهم وتسد المنافذ على غيرهم من أتباع وأصحاب وأنصار بل هى كلمة مرنة تنسحب على أولئك وعلى غيرهم.

ولإيضاح هذا لا بد أن نقف وقفة متأنية نحيط فيها بابعاد تستعرض المفاهيم:

١. الآل كلمة واسعة الدلالة فقد يطلق على الشخص الواحد .

أ- أما على سبيل التشريف والتعظيم كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نِبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ البقرة٢٤٨. فالتابوت تركه موسى وهارون عليهما السلام ومحتوى مخالفاتهما وتعظيما للنبيين وتفخيما لشأن التابوت نفسه سبقت كلمة ﴿ آلُ ﴾ اسم النبيين الكريمين وكأنهما بما حققا وأنجزا وقاوما وجاهدا كانا أمة كأبراهيم الذى قال الله فيه (إن ابراهيم كان أمة) وهذا ـ في ظنى أنسب من قول المفسرين

أسند "بالبناء للمجهول" الترك إلى آل موسى وآل هارون من حيث أنتقال التابوت من يد إلى يد وكلهم آل موسى وآل هارون.

ب- وأما على سبيل النكاية والتهكم كما في قوله تعالى ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ غافر٤٥: ٤٦.

قالوا : لعل سوء العذاب قدر ماتدرك بين فرعون وأشياعه ولعل أشد العذاب خاص بفرعون ذاته بحكم كونه صاحب أمرهم الذى يقدمهم يومم القيامة ويوردهم النار﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾هود٩٦: ٩٩. ففرعون ـ بهذا الاعتبار من الصور التى تعكسها الآية الكريمة ﴿ لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ ﴾ النحل٢٥ . فهو بحكم ولايته المسئولة يبوء باثمة واثمهم ويحمل وزر الضلالة ووزر الاضلال .

٢. وآل الرجل قومه وأتباعه وأهل دينه وربما لمحنا هذا المعنى فى كثير من الآيات التى وردت فيها كلمة "آل" ومن ذلك قوله سبحانه ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ البقرة٤٩

قال القاسمى : المراد بآل فرعون فرعون وأتباعه فان الآل يطلق على الشخص وأتباعه

وقال أبو عبد الله القرطبى (آل فرعون قومه وأتباعه وأهل دينه وكذلك آل رسول الله من هو على ملته ودينه ، فى عصره وفى كل الأعصار سواء كان نسيبا



له أو لم يكن ومن لم يكن على دينه وملته فليس من آله ولا أهله وإن كان نسيبه وقريبه

٣. وكلمة ﴿آلُ﴾ تذكرنا بكلمات يمكن أن تكون مصادر لكلمة ﴿آلُ﴾ وبكلمات أخرى يمكن أن تكون نظائر تقرب من كلمة "الآل" في المبنى والمعنى .

أ- تذكرنا بكلمة "أهل" وقدقال أهل اللغة إن كلمة "أهل" أصل كلمة ﴿آلُ﴾ قلبت الهاء إلى همزه تخفيفا ثم أبدلت الهمزة الثانية ألفا زيادة في التخفيف قال صاحب القاموس : إلا أن كلمة ﴿آلُ﴾ لا تستعمل إلا فيما فيه شرف غالبا.

ب- وتذكرنا بكلمة "الآل" بكسر الهمزة بعدها لام مشددة والآل من معانيه العهد والحلف والجار والقرابة والأصل الجيد فلعل هاء "أهل" أبدلت هناك همزة. ويحسن هذا القول أن أهل الرجل هم أصحاب عهده وهم في الغالب جيرانه وهم فى الغالب قرابته وأصله إذن العلاقة بين الأل "بكسر الهمزة وتخفيف اللام الآخيرة" وبين الآل علاقة وطيدة.

ج- وتذكرنا بـ آل يئول أولا ومألا بمعنى رجع ـ وأهل الرجل عيبته ومرجع أمره.

د- وتذكرنا بـ آل الدهن أولا بمعنى تماسك وخثر ـ وآل الرجل عدته وسر تماسكه وقوته أى أصلحه وساسه وآل الملك رعيته أيالا ساسهم. وآل على القوم ولى عليهم ـ وأفراد الآل يتعاهد بعضهم بعضا ويصلح بعضهم شئون بعض وبعضهم أولياء بعض

و- ونذكر فيما نذكر كلمة "الآل" بمعنى السراب وكذلك جل الناس يمضون (فتح الياء وكسر الميم) من بعيد وميض البرق الخلب ويئلون "يلمعون"

كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ـ أو لأن الحياة كلها سراب والناس قريبهم وبعيدهم وهج كاذب يعكسه السراب والمآل المحتوم هو الانقشاع والزوال وانطفاء كل بريق حسب قول الشاعر :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا   أنيس ولم يســـمر بمكة سامر

أو كما قال الآخر :

فلما تفرقنـــا كأنى ومالكا   لطول إجتماع، لم نبت ليلة معا

ز- والآل بعد كل ذلك الشخص نفسه وآل الرجل أتباعـه وأوليـاؤه وآل الله ورسوله أولياؤه "قـاموس" أردت ان يكـون ذلـك زادا للـدعاة الـذين يتصدون لأبواق المستشرقين ومتحذلقـة المتصـوفين فهـؤلاء يشقشـقون بكلمات خداعة ويخرصون بل يختلقون مفاهيم ومبانى وتآويل لا أسـاس لها ما نزل الله بها من سلطان.

إذا تحقق هذا فاعلم أن آل محمد هم الذين حددهم أبو عبد الله القرطبى .

- (جـ١ ص٣٨١ تأويل آية : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ هم الذين على ملته ودينه في عصره وفي كل الأعصار ، سواء كانوا أنسباء أو لم يكونوا ومن لم يكن على دينه وملته فليس من آله ولا أهله وإن كان نسـيبا قريبـا والمؤمنـون حين يلهجون فى صلواتهم وفى غير صلواتهم بذكر آل محمد داعـين مترحمـين سائلين لهم البركة والنماء إنما يصلى بعضهم على بعض ويبارك بعضهم لبعض.

والمؤمنون اذ يصلون ويباركون على محمد وآله انما يفعلون هذا

١ - شكرا لله على نعمة أسداها.

٢- واستبقاء لتلك النعمة بالدعاء لهم إن مكر الله غير مأمون ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾الأعراف ٩٩ .

٣- وائتماراً بأمر الله سبحانه فقد أمرنا أن نصلى على نبيه الكريم وتنبيها إلى هذا وتربية لمشاعر الخوف الدائم من الله والرجاء الحار فى الله كان رسول الله ﷺ يقول: " انى وأنا رسول الله لا أدرى ماذا سيفعل بى "[(١)] فلو كانت إحدى قدمى فى الجنة والأخرى خارجها خارجها ما أمنت مكر الله.

ومن شواهد هذا ما روى البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت (ما رأيت رسول الله ﷺ ضاحكا حتى أرى منه لهواته) (جمع لهاة وهى اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم) إنما كان يبتسم وكان إذا راى غيما أو ريحا عرف - بالبناء للمجهول - في وجهه قالت : يا رسول الله الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية؟ فقال يا عائشة ما يؤمنتنى ان يكون فيه عذاب؟ عذب قوم بالريح وقد رى قوم العذاب فقالوا هذا عارض ممطرنا[(٢)] .

٤- واستزتدة لنعمة عزيزة غالية ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ إبراهيم٧. والنعمة المسادة التيندعو كى نستبقيها ونستزيد منها هى نعمة صلاة المولى والملأ الأعلى على رسوله وعلى المؤمنين فالصلوات التى نستمطرها واقعة ثابتة أما بالنسبة لرسول الله ﷺ فمقتضى قوله سبحانه ﴿ إِنَّ اللهَّ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ الأحزاب٥٦. واما النسبة لسائر المؤمنين فبمقتضى قوله سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ الاحزاب٤٣. وقوله سبحانه ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ

---

(1) البخارى كتاب الجنائز حديث١٢٤٣ وكتاب الشهادات حديث٢٦٨٧ فضائل الصحابة حديث٣٩٢٩ وفى التعبير حديث٧٠٠٣، ٧٠٠٤، ٧٠١٨ عن أم العلاء رضى الله عنها في شأن عثمان بن مظعون رضى الله عنه.

(٢) عن عائشة رضى الله عنها حديث٤٨٢٨ طرفه ٦٠٩٢ كتاب الاداب مسلم كتاب الاستسقاء حديث١٦ من الكتاب.

الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَّهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ غافر٧، ٨.

إن الملأ الأعلى كله يصلى على المؤمنين ويستغفر ويطلب لهم جنات عدن والوقاية من مغبات الذنوب بل تنداح (تمتد وتتسع) دوائر الرحمة فى الملأ الاعلى حتى تسع أهل الأرض ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلاَ إِنَّ اللهَّ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾الشورى٥.

واذا كانت الصلوات تتدفق من كل صوب على من فى الأرض فليت شعرى ما الميزة التى تميز بها آل محمد ـ حتى على فرض أن كلمة آل يقصد بها خاصته الأقربون من أولاد وأحفاد وأصهار وأرحام؟

سنة الله

والاسلام ـ كما هو معلوم لم يبن (بالبناء للمجهول) على فراغ بل قام على سنن الموحدين ووصل الماضى بالحاضر ونسج على منوال الرسل السابقين، ﴿ يُرِيدُ اللهُّ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُّ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ النساء٢٦.

الاسلام بكل تعاليمه يبنى على ﴿ سُنَّةَ اللهَّ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهَّ تَبْدِيلاً ﴾ الفتح٢٣.

ورسولنا ﷺ هدى سنة المرسلين من قبله وفي (بالبناء للمجهول) مثلهم مواقف الحرج وجنب (بالبناء للمجهول) كما جنبوا أسبابه، وحمل (بالبناء للمجهول) على مناهج الفطرة الميسرة لكيلا يكون عليه حرج وصدق الله ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُّ لَهُ سُنَّةَ اللهَّ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ



أَمْرُ اللهَّ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهَّ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللهَّ وَكَفَى بِاللهَّ حَسِيبًا﴾الاحزاب٣٨: ٣٩.

ومن سنة الله فى المرسلين الذين أصطفاهم الله عز وجل.

١ – أن يصوغهم صياغة تـُعينهم على أن يثبتوا عند الفتن ويقووا أمام تحديات المحن التى تفجرها القوى المضادة للحق وأمام أسلحة قوامها الغواية والتمويه والصرف عن الجادة والاستفزاز والدعاوى المفتراه المثيرة بغية ايجاد جو يورث الطيش والاضطراب ويدفع إلى تصرفات حمقاء.

٢ – ومن سننهم أن يتقوا مكر القوى المضادة بالصلوات تقام فى أوقاتها وبالنوافل تضوى فى معارجها وبالذكر وبالصبر وبالفطنة والحكمة والحركة المدروسة والقرآن الكريم يجلى لرسول الله ﷺ مقومات الصمود تجلية وفي خلال ذلك يغريه بالتزام سنة الأولين ذلك ما نستوحيه من آيات الاسراء ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾الاسراء٧٦: ٨١.

٣– ومن سنة المرسلين ان يوصوا ذويهم، وذراريهم بالعمل، والتقوي، واسلام الوجه لله وحده ذلك ما تلمسه:

١- وأنت تستعيد القرار الرباني الذي سلخ ابن نوح عن نوح، وجرده من أهليته ﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهلكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ هود٤٦.

٢- وأنت تستعيد نصوص وصية نبين كريمين أقبلا على أولادهما موصين بالتزام الجادة، وبالاسلام حتى الموت ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَّ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آَبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾البقرة١٣٠ : ١٣٣.

٣- وانت تستعيد من تعقيب يعقوب عليه السلام على رؤيا يوسف قول الله ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ يوسف٦ فالآية توضح أن رأس الأمر اجتباء يعقبه ابتلاء، وتكليف. وأن قوام الأمر علم فياض يسع الأقربين والأبعدين. وأن طريق الكمال يمتد فوق قواعد بني عليها الأكرمون. وأن المنهج المرتضي هو منهج الأتباع (بتشديد التاء) وكان يعقوب عليه السلام يوصي يوسف بالتزام درب الكمال الذي التزمه الأصول الاكرمون ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ ﴾ ولقد أتمها الله على الأبوين بالايمان، والجهاد، والصبر، والعطاء، والعلم، والحكمة والتواصي بالخير.

وهكذا نعلم أنه ليس من سنن المرسلين أن يعطوا الذراري فوق ما أعطي سائر الناس. ومحمد ﷺ ـ كما وضحنا ـ إنما يتبع بعض المرسلين، وينسج على منوالهم. فما يكون له أن يحيد عن السبيل، أو ينحرف ليوصي لذويه بفضل تكريم لمجرد أنهم ذووه.

المؤمنون يتحركون حول محور رحب الآفاق، رخي السني، عبق الأرواح دسم العطاء.

محور هو بحكم وجدانه العالي المرهف، وقلبه الكبير الدفيء بكلمات الله، هو ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ الأحزاب٦ .

هذا المحور الذي يستقطب من معه من أصحاب، ويجتذب، ويهفو إلى من وراءه من إخوان يجدون صحفاً فيها كتاب، فيؤمنون بما فيها ـ مصداق ما ورد عن رسول الله وهو يصنف أتباعه إلى أصحاب يعايشونه فعلاً، وإخوان في ضمير الغيب يتلقفون دعوته، وينشرون هداه، ويذبون عن حياضه، ويؤمنون بالغيب. هذا المحور هو رسول الله ﷺ الذي اجتباه ربه كي يعكس على الارض ما يستقبل من السماء.

والمؤمنون بهذا المقتضي ـ أخوة لعلات. أمهاتهم شتي، بلدانهم متنائية، أزمانهم مبتاعدة، هوياتهم مختلفة، أعراقهم متشعبة، ولكنهم يغذون ـ بالبناء للمجهول ـ برحيق واحد ، مصفي يربط بينهم ، ويؤلف بين قلوبهم ، وينمي مادياتهم، ومعنوياتهم، ويحوطهم بأرواح علوية.

وهذه الأرواح المشتركة التي تهب عليهم سخاء، رخاء، فتسري في الأوصال وتجري في العروق تشكل منهم رابطة محكمة الأواصر، تزري بكل الروابط التي تنبثق من فصيلة الدم، أو وحدة العرق، أو عنصرية الأصل، أو عصبية النسب، والقبيلة. وتلك الروابط السماوية قوامها علائق الروح. ورد فعلها وحدة الأنفاس والاحساس والنبض (مثل المؤمنين في تعاطفهم، وتراحمهم) تترابط بها



القلوب المؤمنة وتتجاوب، وتعبر عن نفسها بمثل تلك الصلوات التى يدعو بها بعضنا لبعض بظهر غيب.

ولعل مما يؤيد أن الحقيقة هي ما قلت ـ ذلك الترتيل الشجي الذي نقدم بـه لتلك الصلوات التي نتم بها تشهدنا. الترتيل الذي تعم أرواحـه كـل المـؤمنين (السلام علينا وعلي عباد الله الصالحين) ومن وحي هذه العبارة الموحية (السلام علينا وعلي عباد الله الصالحين) يمكان أن نفهم أن المؤمن سبيله أن يبـدأ بنفسـه فيحيطها بكل روافد الأمن والسلام من توحيـد، وإيـمان وصـدق، وإخـلاص والتزام بكل ما عهد الله... ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ*وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ يس٦٠، ٦١.

وأن يثني بعباد الله الصالحين، على إختلاف أشكالهم، وألوانهم، وبقـاعهم، وأزمانهم. يرجو لهم الرحمة، ويتمني السلام، ويدعو من أجلهم بظهر غيب.

فكأن ديننا سلام ولكن على كل صالح. أما من أنحسر عنـه رداء الصـلاح فقد أضحي مكشوفاً للشيطان بعيداً عن دوائر الأمان.

ويصدران مقترنين. فاذا كان السلام يهب عـلى المـؤمنين عامـاً بـلا تفريـق فكيف اذن يتأتي أن نضيق اكناف "الصلاة" حتى تشتمل اشتمال الصماء[1] بفئـة معينة، أو بيت محدود؟

قضية الأهل

تلك أبعاد قضية "الآل" فما قضية الأهل ؟ وما تأويل تلـك الآيـة الكريمـة التي تشدق بها خصوم الإسلام زاعمين أنها صريحة في التمييز، والمحاباه والكيل بأكثر من مكيال ؟ وما تأويل قوله سبحانه (إنما يريد الله ليذهب عنكم الـرجس

[1] اشتمال الصماء أن تتلفف بثوبك تلففاً يصف جسمك ويعوق حركتك.



أهل البيت، ويطهركم تطهيراً).هكذا بهذا الأسلوب الذي تتصدره "أن" المكفوفة عن العمل بـ("ما" الكافة) حتى تتفرغ للتوكيد، والحصر ؟

وقفة لغوية

في تتبعنا لاشعاعات كلمة "آل" أشرنا إلى أن "آل" أصلها "أهل" وأصل كل شيء ينطوي بالضرورة على جذور الحقائق التي يحملها فرعه، فكما أن الوليد يرث من خصائص أصوله، كذلك ترث الكلمة المشتقة ـ باعتبارها كائناً حياً ينمو ويذوي، يعمر "بالبناء للمجهول" وينتكس، يحيا ويموت ... الخ ـ ترث من خصائص مصدرها، كما ترث الكلمة المحورة من خصائص أصلها. ومقتضي هذا أن كلمة "أهل" تحمل ما يحمل فرعها من معان[1]. إلا أن كلمة "آل" لها دخلها من ابدال، وببنائها الجديد، ترتبط او تلتحم بمادة "أول" (بفتح الهمزة وسكون الواو) وتصطبغ بمعانيها، تماماً كما تكسب الشجرة المطعمة من خصائص الشجرة الأخري التي طعمت بها.

بيد ان الكلمة تستمد حياة أخري من السياق، وتنحو بها الاستعمالات المطردة مناحي جديدة تثري الكلمة، وتضفي عليها حيوية عرفية، أو شرعية، أو مجازية، أو ايحائية. جديدة فوق حيويتها الأولي وتتكامل الحيويتان ليتولد من تلاقحهما شيء جديد، ولكنه يرث من عنصري التزاوج ويحمل من ملامحهما.

كلمة "أهل" والمعاني المعارضة

وكلمة "أهل" أضافت اليها الاستعملات المختلفة مقاصد مختلفة، تقرب، أو تبعد من مفهومها اللغوي.والكلمة بوضعها الأول تعطي معني

---

(1) ولكنها تستقل باستعمالات لا تشاركها فيها الكلمة الثانية كما تستقل الثانية باستعمالات خاصة بها.

الانس. تقول : أهل "بفتح الهمزة وكسر الهاء" أي "أنس " ثم توسع "بالبناء للمجهول" في الكمة فأطلقت على مصادر الأنس اطلاقاً عرفياً. ودارت الكلمة في استعملاتها العرفية حتى رسخت وظن "بالبناء للمجهول" أنها أصل فيها.. من ذلك قولهم:

١- إهالة "ككتابة " للزيت، والشحم، وكل ما يؤتدم به. لأن توفر الادام كان عامل بهجة وأنس للبيت كله.

٢- وقولهم : إستأهل فلان كذا أي إستحقه. لأن الظفر بالحق عامل استقرار. وأنس.

٣- وجروا على هذا المنوال فقالوا :

أ. أهل الرجل لعشيرته، وذوي قرباه ممن يؤنسونه غالباً.

ب. وأهل الأمر ولاته الذين يأنسون بالأمر، ويأرز اليهم الأمر.

ج. وأهل البيت سكانه. وأهل المذهب من يدينون به.

د. وأهل الرجل زوجه.

ه. وأهل النبي أزواجه، وبناته، وصهره، وأحفاده الذين كانوا يحركون فيه غريزة الاجتماع، وعوامل الأنس الانسانية الأولي.

و. وأهل كل نبي أتباعه، وأمته، وآله الذين هم أولياؤه.

وهكذا نري أن معني الأنس يلازم كلمة "أهل" في كل هذه الاستعمالات.

ولسنا نقف هذه الوقفة اللغوية عبثاً، ولا حشوا، ولا إستعراضاً بل المراد:

١- أن يظل جني "ثمر" هذه الوقفة اللغوية زادا للدعاة، دانيا أمامهم يتصدون به لأبواق المستشرقين، وهراء المتصوفة.

٢- أن نسجل أن كلمة "أهل " تعطي هذا العطاء العام. فلا مجال لصرف الكلمة عن عموميتها وحصرها في ركن محدود الا بقرينة بينة.

واستعمالات القرآن الكريم للكلمة دارت في هذا المدار، وحملت معها بمعني الأنس، ولم تخرج عن الدائرة التي رسمناها.

تدبر قول الله : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أهل بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ ﴾ القصص١٢ ﴿ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأهلكَ سُوَءاً ﴾ يوسف٢٥. ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأهلهِ ﴾ القصص٢٩. ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أهلهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً ﴾ مريم١٦ ﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأهليهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ الزمر١٥ ﴿ هُوَ أهل التَّقْوَى وَأهل الْمَغْفِرَةِ ﴾ المدثر٥٦. تجد ان الأمر على ما أوضحنا. وأن العموم حقيقة لا تخصص إلا بقرينة السياق أو الاضافة، أو العهد...الخ.

وورود كلمة "أهل" في النظم القرآني دائرة بين تلك المعاني مرتكز ركين يتيح لنا ان نظنها في آيتنا ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أهل الْبَيْتِ ﴾ الأحزاب٣٣. تحمل نفس المعاني، وتؤدي عين الأداء وتصلح أن تستعار لأهل كل بيت، إذا لم تعتبر القرائن التي وجهت تآويل المؤولين.

نظرة تطبيقية في آيات

وليزداد الأمر وضوحاً، وكي تطمئن القلوب أكثر، وأكثر، نستعرض معاً طائفة أخري من الآيات التي اشتملت على كلمة "أهل" من قبل أن ننظر في القرائن أو نناقش الآراء المختلفة التي حفلت بها التفاسير.

١- ﴿ قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَتُ اللّهِ ﴾ هود٧٣ ﴿ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ ، والآية سبقت بالحديث عن الزوجة ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ .. ﴾ هود٧١ وهذا السياق قرينة تعين المراد بكلمة "أهل".

٢- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأهليكُمْ نَاراً... ﴾ التحريم٦ . والآية جاءت بعد الحديث عن بعض أزواج النبي ﷺ، وبعد تقريع، وحث على العودة إلى الاعتدال من بعد ميل ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً ﴾ التحريم٣: ٥. وهذا السياق قرينة ترجح ان آية ﴿ قُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ التحريم٦ . تشير أول ما تشير إلى الأزواج. وكذلك آية ﴿ وَأْمُرْ أهلكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ طه١٣٢.

٣- واذا أصغنا السمع إلى صيحة أخوة يوسف ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأهلنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ يوسف٨٨. وارتددنا ـ مع صيحتهم ـ إلى موطنهم، وموقفهم وهم يقنعون أباهم بأن يرسل معهم أخاهم حتى يتاح لهم أن يسروا الأهل، ويزدادوا كيل

بعير ﴿ فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون (٦٣) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أهلنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ يوسف٦٣: ٦٥. بهذا، وبما لحق هذا، نعلم أن المراد بكلمة "أهل" العشيرة كلها. ولاسيما إذا تدبرنا في قول يوسف عليه السلام ﴿ اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأهلكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ يوسف٩٣.

٤- واذا قرأنا قوله سبحانه ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأهلكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ العنكبوت٣٣ علمنا أن الكلمة ـ هنا ـ وفي ﴿ فَأَسْرِ بِأهلكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ هود٨١ تشمل الأسرة، والزوجة وإلا لما كان هناك ضرورة للاستثناء ﴿ إِلاَّ امْرَأَتَكَ ﴾.

٥- ومثل هذا ما قيل لنوح عليه السلام ﴿ حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأهلكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ هود٤٠.

٦- واذا تلوت قوله سبحانه ﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أهلنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾ الطور٢٧.

نتذكر قول الله سبحانه : ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أهلهِ يَتَمَطَّى ﴾ القيامة٣٣. أيقنت أن الكلمة فيها سعة توحي بها حالتا الاشفاق، والتمطي. هكذا



كلمة "أهل" تسع بوضعها اللغوي، والعرفي، والشرعي. أفراداً، وأفراداً، وأفراداً.

المفهوم العرفي أو الشرعي

المفهوم العرفي لأي كلمة فيه المفهوم اللغوي، وزيادة. فالصلاة مثلا تعني في اللغة الدعاء، وهي في عرف الشرع تعني : الأقوال والأفعال المخصوصة، المفتتحة بالتكبير، المختتمة بالتسليم.

والصورة الشرعية للصلاة يسري فيها المفهوم اللغوي لأن الدعاء المتضرع المذعن روح الصلاة... والصوم لغة، الامساك. وفي عرف الشرع، إمساك على وجه مخصوص، والحج القصد، وفي الشرع قصد مخصوص، مصحوب بملابسات محدودة. وهكذا.

ولقد تنازع أهل العرف الشرعي - من فقهاء، وأصوليين، ومحدثين في مفهوم كلمة "أهل البيت"

١- قيل على وفاطمة وابناهما
٢- وقيل - كما قيل في كلمة آل - هم المتقون من أمته.
٣- وقيل هم كل من احتواهم بيت النبوة.
٤- وقيل هم أزواجه خاصة.
٥- وقيل أزواجه لسن من أهل بيته.
٦- وقيل هم الذين حرموا الصدقة من ذوي قرابته.
٧- وقيل هم بنو هاشم
٨- وقيل هم الحي من قريش الذين لا تدين العرب الا لهم..وقيل كل أمته أي هؤلاء المذكورون وغيرهم.

نظرة تمحيص

ومما يبدو عند التدبر والتمحيص :

١- أن أزواج محمد من أهل بيته خلافاً لمن أنكر ذلك.

٢- وذلك مصداق ما روي مسلم في صحيحه عن زيد بن أرقم حين سئل: (من أهل بيته؟ أليس نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده. قال حصين "السائل" ومن هم ؟ قال هم آل على، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس. قال كل هؤلاء حرم الصدقة ؟ قال نعم[1].

٣- ولما ورد في الصحيحين من أنه عليه الصلاة والسلام علمهم الصلاة عليه " اللهم صل على محمد وازواجه ،وذريته[2]".

٤- ولأن امرأة ابراهيم، وامرأة لوط من أهل بيتهما بنص القرآن.

٥- فوق أن الآية ﴿ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ ﴾ المائدة٤٩. وردت منسوقة "معطوفة" على آيات تخاطب نساء النبي وتعالج بعض مشاكلهن. والمنسوق يأخذ حكم المنسوق عليه.

(1) حديث زيد بن ارقم رضي الله عنه ورد في معرض ذكر تخوف رسول الله ﷺ على أهل بيته، ووصابته بهم على ما تقدم، وكان رسول الله ﷺ يتخوف من فتن جائحة لا تحد، تضرمها نفوس تختزن من نار الحسد ما تختزن، وتقذفها فوق كل الرءوس التي يظن فيها الانحياز لبني هاشم. وفي مقدمة تلك الرءوس هذه الرءوس التي ذكرها زيد بن أرقم. فلا يفهم "بالبناء للمجهول" أن هؤلاء هم الذين نصلي عليهم. بل هؤلاء الذين يخشي عليهم، وفرق بين الاعتبارين. مسلم حديث ٢٤٠٨ كتاب فضائل الصحابة.

(2) صلوات التشهد توقيفة مأثورة والصلاة التي هنا نافلة توقيفية، والرسول بحكم كونه إنساناً وراعياً بالدرجة الأولي لبيته، وعشيرته الأقربين، ولأنه خير الناس لأهله، ولأن الأهل هم المرتبة التي على مرتبة النفس (قوا أنفسكم وأهليكم ناراً) تأذراً بكل هذه المعاني استرحم لأهله الأقربين. كما يقول أحدنا لجمع "ادعوا الله في". البخارى كتاب الأنبياء حديث٣٣٦٩ عن أبى حميد الساعدى، مسلم كتاب الصلاة باب التشهد حديث٤٠٧.

ب- الأتقياء من أمته أعلي درجة من هذا. فالأتقياء أولياؤه لما ثبت في الصحيحين من أنه ﷺ قال : (ان آل بني فلان ليسوا لي بأولياء، وإنما وليي الله وصالحوا المؤمنين)[1] وهذا الأثر ـ كما لا يخفي ـ يثبت الولاية لصالحي المؤمنين، ولكن لا ينفي عنهم الأهلية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة "الجزء الرابع ص ١٩، ٢٠....." (واذا كان كذلك فأولياؤه المتقون بينه، وبينهم قرابة الدين والايمان، والتقوي. وهذه القرابة أعظم من القرابة الطبيعية لأن القرب بين القلوب، والأرواح أعظم من القرب بين الأبدان. ولهذا كان أفضل الخلق اولياؤه المتقون.

وأما الاقارب ففيهم المؤمن وفيهم الكافر. وفيهم البر والفاجر. فإن كان فاضل منهم كعلي وجعفر والحسن والحسين...الخ. ففضلهم بما فيهم من الايمان والتقوي. فهم أولياؤه بهذا الاعتبار، لا بمجرد النسب فأولياؤه أعظم درجة من آله ـ وإن صلي عليهم تبعاً ـ فذلك لا يقتضي ـ أن يكونوا أفضل من أوليائه الذين لم يصل عليهم. فان الانبياء، والمرسلين هم من أوليائه، وهم أفضل من أهل بيته وإن لم يدخلوا في الصلاة معه تبعاً فالمفضول قد يختص بامر ولا يلزم أن يكون أفضل من الفاضل بدليل أن أزواجه هن ممن يصلي عليهم ـ كما ثبت في الصحيحين ـ والاتفاق على أن الأنبياء أفضل منهن كلهن) أ. هـ. هذا ولا يخفي أن كلام شيخ الإسلام رحمه الله على فرض أن الآل ـ والأهل يصدقان على العشيرة الأقربين فقط ـ فهم حتى على هذا الفرض ـ ليسوا في القمة فأين المحاباه؟

---

[1] البخارى فى الأدب حديث رقم ٥٩٩٠ مسلم كتاب الإيمان حديث٢١٥ وحديث رقم٣٦٦ من الكتاب من حديث عمرو بن العاص.

قلبنا كلمة "أهل" علي وجوهها المختلفة، وتتبعنا ما ينبعث من الكلمة من إشعاعات متشعبة متشابهة السني "الضوء" لأنها تصدر من مشكاة واحدة.

واهتدينا في تعاملنا مع الكلمة بآيات كريمة ألقت الأضواء ،وهدتنا السبيل.

وعرفنا ـ يومئذ ـ أن الإسلام أحل صالحي المؤمنين منزلة رفيعة تتضاءل إزاءها منازل الأهل، والأصحاب، والأنساب، والأصهار، فلأولئك الذروة التي وطئت (بضم الواو وتشديد الطاء المكسورة) للذين أنعم الله عليهم من النبيين، والصديقيين، والشهداء، والصالحين وغير أولئك تتحدد مراتبهم على قدر أعمالهم، وصدقهم، وإخلاصهم.

أما الأهلية المجردة ـ وإن قلنا انها مخصوصة بأقرب الأقربين- فقد تضفي بريقاً يخلب ألباب الناس ولكنها عند الله لا ترفع، ولا تخفض بل ربما كان الحسيب النسيب أحوج إلى العطف والدعاء من غيره، لاحتمال أن يتكل (بتشديد التاء المفتوحة، وكسر الكاف) وخشية أن يغتر بصلاته العرقية فيقصر، أو يطغي، أو يعمل لاستغلال هذه الصلات في أغراض شخصية دنيا. وخوف أن ينتشي بالدخان الذي يتصاعد من مجامر المغرضين، والبلهاء أو يستطيب غلو الغالين، وترتيل المحاسيب الزائفين من مارقي (جمع مارق وهو الخارج عن الصراط) الشيعة، وحمقي المتصوفة فان ندبنا (بالبناء للمجهول) أن نصلي عليهم ـ كما ورد في حديث التعليم السابق- فذلك لأنهم على خطر عظيم يشكله كل تلك الاحتمالات التي ذكرناها.

والآية ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾الأحزاب٣٣ حرية بان نعود اليها مستمنحين، مستفتحين[1]، فهي عند الصوفية دليل التميز، وعند الشيعة الرافضة حجة العصمة، وأصل الامامية، وقاعدة المذهب [2] الشيعي الذي استفحل خطبه، وتطاير شرره.

والصوفية وليدة تماس (بتشديد السين) ثم بين الشيطان والرافضة، فهما (الشيعة والصوفية) متكاملان. ومن ثمرات تكاملهما ما نري من موالد، ومناسبات ، وقباب وأضرحة ، وأغواث وأقطاب وأبدال ، وقداسات مفتراة ما أنزل الله بها من سلطان.. قداسات أضيفت على مقبورين يحج إلى ساحتهم ـ ولاسيما في لياليهم الختامية ـ ملايين من الأغرار، والسذج، يقدمون منتفعون مضللون وتشجعهم أقلام، ويبارك وفادتهم سلطات ويغمض عن غيهم شياطين رفض، ويبلغ الخطب أشده حين تخصص صفحات كاملة تروج لهذا العته. وتضحك ـ وشر البلية ما يضحك ـ وأنت تري جريدة سيارة تفرد صفحة كاملة لأنباء مولد البدوي، وتنشر فيما تنشر أن مطرباً شاباً ظفر بلقب فني خليع فنذر ـ شكراً لله ـ أن يسوق الهدي إلى ساحة الكفر البواح، وأن يغني في ليلة البدوي الختامية حتى الصباح، وتأسف حين ينقل اليك عن مسئول كبير أشرف على عملية نقل رفات عشرة "الأولياء" الذين ظلوا رابضين بساحة أبي العباس المرسي دهراً طويلاً مقدسين، مؤلهين، يلتمس رضاهم، ويتقي سخطهم، وترجي بركتهم ـ تأسف حين تسمع عن المسئول أنه كاد يصعق حين لم يجد في الحفائر غير أطراف ،وجماجم حيوانات، وأنه اضطر أن يستمر في التمثيلية التي أنيطت به فنقل عظام الحمير، وجماجم الكلاب، وهياكل البغال إلى مثواها الجديد في احتفال رهيب، رجاء ألا تحل لعنتهم على الساحة التي أخليت كي تكون حرماً لقبلة مشركي الاسكندرية. وهكذا أضحي لكل ناحية مشركوها.

---

(1) نطلب المنحة وننشد النفحات.

(2) تدعي الرافضة عصمة على رضي الله عنه، وأنه بهذه العصمة له الحق الأول في امارة المؤمنين. وأن ماحدث بعد موت رسول الله في سقيفة بني ساعدة ظلم لعلي، وسرقة بينه لحقه.

ولكل وثن سدنته، ولكل مباءة قبلة، وحرم. وكذلك آلت قضايا التقديس، والتنزيه، والعصمة ، ودعاوي البركات والكرامات إلى مهازل، ومساخر، واستخفاف بالعقول وابتزاز باسم الدين المظلوم.

ونحن حين نعيد، ونزيد، ونطيل الوقوف أمام عواصف الخيال المشرك، إنما نفعل ذلك تقديراً لخطورة الأمر، وإظهارا للحق وسداً للذرائع، ورجاء أن نحاصر الداء الوبيل حتى لا تستشري العدوي.

أهمية استقرار البيت النبوي

وآيتنا ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ ﴾ وضعت بين آيات تربطها وحدة البيئة القرآنية التي تمتد ما بين قول الله ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ﴾ الأحزاب٢٨ ، وقوله سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً ﴾ الأحزاب٣٦.

والآيات تستهدف أول ما تستهدف ضمان استقرار بيت النبوة استقراراً يكفل مسيرة صحية لا تشوبها قلاقل، ولا يعكرها توتر أو قلق. ذلك لأن الزوجية هي السكن وهي السكينة، والسكينة مهد كل صحة نفسية. وأي اهتزاز في بيت النبوة ـ وإن صغر ـ حري أن يهدر وقتاً ثميناً من وقت النبوة. فوق أن أثر الاهتزاز ـ بلا شك ـ سيتجاوز رسول الله ﷺ ليعم سائر المؤمنين، كما كان يوم حديث الافك[1]، ويوم شاع ان النبي طلق نساءه[2].

---

[1] البخارى كتاب الشهادات حديث٢٦٦١ تفسير سورة يوسف وسورة النور وكتاب الايمان وكتاب الإعتصام وكتاب التوحيد مسلم كتاب التوبة حديث من الكتاب.

[2] روي الامام احمد عن عمر رضي الله عنه قال من حديث طويل ما معناه ـ كنت انا وجار لي نتناوب النزول على رسول الله نلتمس خبر الوحي وكنا نسكن في دار أمية بن زيد بالعوالي ـ قال وكنا نتحدث أن غسان تعد الخيل لتغزونا ـ فنزل صاحبي يوماً ثم عاد عشاء فضرب بابي فخرجت مفزعاً أقول : ماذا أجاءت غسان قال لا بل أعظم من ذلك وأطول طلق رسول الله ﷺ نساءه ..الخ. المسند جـ١ ص٣٣، ٣٤ والحديث في البخارى كتاب المظالم حديث٢٤٦٨ والنكاح ٥١٩١ واللباس ٥٨٤٣ مسلم كتاب الطلاق حديث ٣١، ٣٤ من الكتاب.

واتقاء هذا الاهتزاز، وحفاظاً على إستقرار بيت النبوة كانت السماء تتـدارك الأمر، وتتدخل في حسم بليغ:

١- تدخلت السماء يوم حجل الشيطان بحديث الافك ينقله من فم إلى فم.

٢- ويوم تآمر على الرسول ﷺ بعض نسائه وحملته على أمر كريه. يومئذ زجر القرآن نساء النبي زجراً عنيفاً ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ[٤] عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾التحريم٤ : ٥.

٣- ويوم ضيقن عليه ﷺ الخناق يسألنه الزينة ويطالبنه بما ليس عنـده ـ يومئذ كان التخيير بمقتضي ـ قوله سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ .... ﴾ الاحزاب. وكانت التربية القويمة، والتأديب البالغ بهذه الآيات التي تشكل بيئة متميزة للآية التي نحن بصددها ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾.

آية تكليف

والآية ـ فيما أري ـ تكليف لا تشريف، لتوضيح هـذا أقـول : إن النـاظر في الآية تستوقفه كلمة "يريـد" كـما تسـتوقفه لام التعليـل الداخلـة عـلى الفعـل "ليذهب" والمعني الذي يتبادر إلى الذهن أن إذهاب الرجس نتيجة، ومسبب، وان "اللام" اداة تعليل، وأن ما سبق من توجيهات، ومن حظر وافتراء، وتحذير أسباب نتيجتها ذهاب الرجس والتطهير. فكأن المعني (يا نساء النبي : ان الله اذ يصرف النبى عن زهرة الدنيا وزينتها، يمكن على ان ترضين بما رضي به رسـول الله ﷺ من عيش الكفاف مؤثرات ما عند الله، واذ يأمركن بالاحسان، والترفع ،

والتعفف، والقنوت، واذ يلزمكن بالتقوي، والفضائل، والكمال...ان الله اذ يريد لكن كل هذا كي تحققن الطهارة، وتتخلصن من كل الأدران، وتـوفرن اللياقـة التي ترفعكن إلى مستوي بيوت النبـي العـامرة بآيـات الله والحكمـة...) وبهـذا التفسير يتضح أن فعل الارادة ـ كونية كانت أم شرعية، كما سنبين فـيما بعـد ـ لا يتسلط علي إذهاب الرجس، وإنما يعمل في محذوف تقديره "ذلك" إشارة إلى ما ذكر من توجيهات، وأوامر، ونواه.

وظني أن هذا التفسير يجنبنا مخاضات الرافضة، ومتاهات الشيعة، ويكفينـا مئونة التكلف البين في تقسيم "الارادة" إلى كونية وشرعية.

ولقد اشار القاسمي في تفسيره إلى نحو هذا حين قال معقبـاً عـلى قـول الله ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أهل الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ الأحـزاب٣٣. أي مـا أمـركن، ونهـاكن، ووعظكـن، إلا خيفـة مقارفـة المـآثم والحرص على التصون عنها بالتقوي، فالجملة تعليلية لأمرهن ونهيهن على سبيل الاستئناف).

مدارج الأهلية

والأهلية المذكورة في الآية أهلية عملية لا تتحقق بمجرد النسـب، فـالتمتع بشرف الانتماء إلى بيوت النبوة حظ الأتقياء المحسنين، أما الغاوون المخلدون إلى الأرض فبينهم وبين هذا الشرف بعد المشرقين ولـو كـانوا آبـاء، أو أخوانـاً، او أبناء. والقرآن الكريم تأكيداً لهذا جرد ابن نوح من هذه الأهلية حين تمرد ومرق (إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير صـالح) واقـراراً لهـذا المفهـوم بـين القـرآن الفواصل التي ينبغي أن تقوم بين المـؤمنين بـالله والمحـادين لله ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمـاً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم

بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ المجادلة ٢٢.

كما أعلن القرآن في سورة الاحزاب الخلال التي تؤهل المرء كي ينعم بشرف الانتماء إلى ظلال النبوة الوارفة، وكلف الله ـ هناك ـ رسوله الكريم ﷺ أن يؤكد حتمية تلك المؤهلات لكل من أراد أن ينضوي تحت لوائه. أما من نبا ومال وأثر الحياة الدنيا فهو مطلق السراح وهو محروم من هذا الشرف الرفيع، فلا عجب إذا أمر رسول الله أن يخير أزواجه بين أن يلتزمن بهذه القيم ويعشن في كنفه، وبين ألا يلتزمن فيعزلن، ويقصين.

وفي هذا نزلت آية التخيير وتوالت بعدها آيات تقيم المدارج التي ترتعك نحو المستوي يكون فيه رسول الله وليك، وأولي الناس بك ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفاً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً ﴾ الأحزاب ٦.

وهذه المدارج ليست وقفاً على نساء الرسول ﷺ، بل هي متاحة، رحبة الآفاق تسع الكافة وتستحث خطا كل المؤمنات والمؤمنين.

والاسلام ـ حين يعالج أو يحاسب ـ يبتدىء غالباً بالرءوس وتوجيهه الخطاب في هذه الآيات إلى حلائل رسول الله من هذا القبيل.

١. فهن السيدات الأوليات وهن القدوة والتشديد عليهن ـ على هذا النحو ـ حري أن يثير حماسه غيرهن لأن قربهن من منزل الوحي وارتباطهن برسول الله ﷺ لم يعفهن. فما بال غيرهن ؟
٢. وهن فوق هذا قريبات من مشاكي النبوة حريات أن يعكسن ما يتلقين، وأن يكن أمثلة تحتذي.

٣. وهن قد يبهرن بالأضواء، وقد يظنن أن مكانهن ربما نفع أو شفع، فاذا أخذن (بالبناء للمجهول بهذه الصيحة أيقن (بالنون المشددة) وأيقن غيرهن أن العبرة في الإسلام بالعمل.

٤. والقصور فيهن أقبح من القصور في غيرهن. وذلك لزيادة فرصتهن، ولكمال النعمة عليهن، ألا تري أن حد الحر ضعف حد العبد، وأن حسنات الابرار سيئات المقربين، وأن الانبياء عليهم السلام عوقبوا فيما لا يعاقب فيه غيرهم؟ لهذا، ولغير هذا أوثرن بالخطاب. وخوطبت الأمة كلها من خلالهن إغراء بالطهارة، وحفزاً للهمم، وحثاً على التصون، والترفع والتقوي.

وظني أن كل من جد، وأخلص، وعزم فصدق وحقق في نفسه كل هذه الخلال النبيلة الجليلة، وتحلي بكل هذه القيم العلوية أصبح حقيقاً بالأهلية، أهلاً للانضواء تحت فساطاط النبوة، ولعل رسول الله ﷺ ـ ايماء إلى هذا ـ قال "سلمان منا أهل البيت". ولا غرو فالنبي أولي بالمؤمنين من أنفسهم، وهذه الولاية التي تحمل[1] كل الأواصر كان رسول الله يؤكدها عملياً كلما سنحت فرصة. جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ كان لا يصلي على ميت عليه دين، فلما فتح الله عليه الفتوح قال: "انا أولي بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفي وعليه دين فعلي قضاؤه، ومن ترك مالا فلورثته"[2].

وبعد فيجدر بنا ان نعيش هنيهة في خضم الآيات فوق المدارج، وعلي اجنحة القيم الأصيلة التي تكفل لأصحابها مستوي الهلية ،ذلك المستوي الذي تتجرد فيه من الذاتية المحضة، وترتفع فوق العواطف، والاغراض، وتحس

---

(1) تخفي .
(٢) البخاري حديث ٤٧٨١ تفسير سورة الاحزاب وحديث ٢٢٩٨.

برسول الله ﷺ وهو يحوطك، ويأخذ بحجزتك[١] حتى لا تهوي في الهلكات، ترتفع إلى حيث يكون رسول الله الأحب الأثير وفق ما جاء في الصحيح (والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى اكون أحب اليه من نفسه)، وماله، والناس اجمعين)[٢] ومصداق ما جاء في الصحيح من أن عمر رضي الله عنه قال : يا رسول الله، والله لأنت أحب إلى من كل شيء إلا من نفسي : فقال ﷺ : لا يا عمر حتى اكون احب اليك من نفسك، فقال يا رسول الله، والله لأنت أحب إلى من كل شيء حتى من نفسي، فقال ﷺ : الان يا عمر[٣].

ورسول الله ﷺ ربي المسلمين على ألا يناقشوا تصاريف القدر بالاسلوب الذي يناقض به تصرفات الناس، وعلي أن يؤمنوا بالقدر خيره وشره.

١. في خلق الله الغني والفقير والغني يستطيع أن يحقق بامكاناته الواسعة ما يشق على الفقير (عن أبي هريرة ان فقرأء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : قد ذهب أهل الدثور[٤] بالدرجات العلي والنعيم المقيم. قال وما ذاك : قالوا يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون. ولا نتصدق ويعتقون ولا نعتق. فقال رسول الله ﷺ أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع

---

[١] اخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:- (انما مثلي، ومثل امتي كمثل رجل استوقد ناراً، فأخذت الدواب، والفراش يقعن فيه، وأنا آخذ بحجزكم، وأنتم تقحمون فيها) والحجز (بضم الحاء، وفتح الجيم) جمع حجزة (بضم الحاء واسكان الجيم) والحجزة للسراويل كالمقعد للازار، فإذا أراد الامساك من يخاف تفلته، او سقوطه أخذ بذلك الموضع منه، وهذا مثل لاجتهاد نبينا محمد ﷺ ، في نجاتنا، وحرصه على تخليصنا من الهلكات التي بين أيدينا أ. هـ من القرطبي. البخارى كتاب الأنبياء حديث٣٤٢٧ كتاب الرفاق حديث٦٤٨٣ مسلم كتاب الفضائل حديث١٧ من الكتاب.

[٢] البخاري حديث حديث ٢٢٩٨ ، ٤٧٨١ تفسير سورة الاحزاب.

[٣] كتاب الإيمان والنذور حديث٦٦٣٢.

[٤] الدثور : الأموال. هذا والأحاديث التي ذكرت هنا للدلالة على حكمة الله وفضله كلها صحيحة.

مثل ما صنعتم ؟ قالوا بلي. قال : تسبحون، وتكبرون، وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، قال فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله قائلين : سمع اخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله فقال رسول الله ﷺ :- (ذاك فضل الله يؤتيه من يشاء)[1].

٢. وفي حديث البخاري (ان لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر) إن الله يقول لملاشكته : اشهدوا فأني قد غفرت لهم. فيقول ملك: أن فيهم فلاناً ليس منهم إنما جاء لحاجة. فيقول الله : هم الجلساء لا يشقي بهم جليس[2].

٣. ومن ذلك حديث الصحاح "إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس أوتي أهل التوراه التوراه فعملوا حتى إذا انتصف النهار عجزوا فأعطوا قيراطا، قيراطاً. ثم أوتي أهل الانجيل الانجيل فعملوا إلى صلاة العصر ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً، قيراطاً، ثم أوتينا القرآن فعملنا إلى غروب الشمس فأعطينا قيراطين فقال أهل الكتابين أي ربنا : أعطيت هؤلاء قيراطين، قيراطين، وأعطيتنا قيراطاً، قيراطاً، ونحن كنا أكثر عملاً قال الله. هل ظلمتكم من أجركم من شيء ؟ قالوا : لا، قال: فهو فضلي أوتيه من أشاء"[3].

١. ان فضل الله غامر، ورحمته واسعة لا تحجر، وتصاريفه لا تناقش، وكلها خالية مما يوصف بالمحاباه ـ عندنا ـ فهي مقادير عامة لا ترتبط ببيت معين، ولا تدور حول إنسان معين. ولا يختص بها دين دون دين. ونصلي ونسلم على محمد وعلي آله وصحبه ومن نهج نهجه إلى يوم الدين.

---

(1) البخارى كتاب صفة الصلاة حديث٨٤٣ وفى الدعوات حديث٦٣٢٩ مسلم فى المساجد ومواضع الصلاة حديث٥٩٥.

(2) البخارى كتاب الدعوات حديث٦٤٠٨ مسلم فى الذكر والدعاء والتوبة حديث٢٦٨٩.

(3) البخارى كتاب مواقيت الصلاة حديث٥٥٨ وكتاب البيوع حديث٢٢٦٨، ٢٢٦٩ . وكتاب الأنبياء ٣٤٥٩ وفضائل القرآن٥٠٢١ وكتاب التوحيد ٧٤٦٧، ٧٥٣٣.

مع بيئة الآية

وضح مما مضي أن القرآن زاد مبسوط، وأن الذكر قري متاح، وأن الحكمة النبوية تعم إشعاعاتها القاصي، والداني. فمن انتشل، ونهل من هذه الينابيع الثرة فقد اتخذ العدة وهيأ نفسه كي تطهر، وتعلو، وتدنو من مستوي الأهلية، ودرجة الولاية، سواء في الحر والعبد، والذكر، والانثي والعريق، وغير العريق لا فضل لأبيض على أسود ولا لأسود على أبيض، ولا لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالعمل والتقوي وآياتنا التي نستهديها معالم مضيئة على طريق المساواة، والعدالة المطلقة بلا تحيز، ولا محاباة.

بل هي ـ كما أسلفت ـ تبين أن غرم نساء النبي أكثر من غنمهم وأن موقعهن يلقي عليهن أعباء أشد، وأن مساءلتهن أعسر بحكم كونهن "النساء الأوليات"، وأنهن بهذه الآيات الزمن (بالبناء للمجهول) وبالتعالي عن العرض الزائل، وباحتقار كل بريق خلب ينبعث من زهرة الحياة الدنيا، وبالتحكم في الانفعالات الفطرية النهمة التي تعتمل عند رؤية المتعات المنعمات. ولم لا ؟ وقد علمن أن رسول الله ﷺ نفسه أمر (بالبناء للمجهول) بمثل هذا بقوله سبحانه ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ طه١٣١. وأنه ﷺ امر (بالبناء للمجهول) أن تظل عينه عالقة بمؤمنين خارج دوائر الضوء، زاهدة في البهرج، والزخارف، والزينة.

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ الكهف٢٨.

آية التخيير بعد نظر
(بعد بضم الباء وسكون العين)

والاسلام حين ينصرف بالنساء الأوليات عن النضارة المغربة المنبعثة من الأعراض الزائلة، وعن الأزدهار الجذاب الذي يتلألأ على وجوه، وصدور غيرهن من النساء.. إنما يفعل الإسلام ذلك كي يقيهن من التورط، وملاحقة الهوي، ومن التسلط، والاستبداد اللذين تولدهما غريزة الأثرة، وحب الاستئثار.. واللذين تؤججهما القدرات المتاحة يمقتضي قرب المكان أو المكانة من الحاكم.

وأهل هذا العصر ربما يكونون أقدر الناس على وعي مرامي هذه النظرية ـ نظرية ضرورة إبعاد النساء الأوليات عن دائرة الأضواء، والرغبات ـ لأن المعاصرين أكثر خلق الله معاناة من أهواء، وآراء، وأدواء النساء الأوليات اللواتي قد يتجاوزن الحدود ،ويبغين فيعصفن في النهاية بالحاكم، والمحكوم.

إن الاسلام كان بعيد النظر حين أحاط نساء الذروة بمثل هذه التعاليم ، وحين حد من لفتاتهن ، وقيد من حركتهن ، وحين حسم في قضيتهن حسماً بليغاً بآية التخيير ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً*وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً ﴾ الأحزاب٢٨، ٢٩.

والملابسات التي صاحبت قضية التخيير كانت ملابسات مثيرة وساعة التخيير كانت ساعة عصبية وإمكانات تقلب النزعات البشرية كانت قائمة. فلا عجب إذا رأينا رسول الله يقدر خطورة الأمر فيأمر نساءه بالتأني والمشاورة ، والنظر روي البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله تعالي أن يخير أزواجه . قالت . فبدأ بي رسول الله ﷺ فقال إني ذاكر لك

أمراً ، فلا عليك إلا تستعجلي حتي تستأمري أبويك ـ وقد علم أن أبوي لم يكونا يـأمراني بفراقـه ـ قالـت: ثـم قـال: إن الله تعـالي قـال: ﴿ يَـا أَيُّهَـا النَّبِـيُّ قُـل لِّأَزْوَاجِكَ.. ﴾ إلي تمام الآيتين قالت: فقلت له ففي أي هذا استأمر أبوي؟ فـإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة[1].

واجتزن جميعاً هذا الامتحان الصعب بنجاح ، وارتفعن بهذا معـالم نـيرة في طريق نساء العـالمين ، ورجـال العـالمين ، وتقـرر أن الاسـلام قبـل كـل شـىء "إحسان" وكلمة "إحسان" تشي بالعمل الذي بلغ أقصي درجات الجودة ، كما تنم (بفتح التاء وكسر النون وتشديد الميم . أي تفصح وتظهر) عن نفسية خيرة ، ووجدان رقيق.

تكاليف هذا الاختبار

والبقاء في كنف النبوة أمر جليل، وشرف الانتماء إلي رسـول الله ﷺ الـذي اختزنـه، وأختـزن سـبيله شرف مفـدي (بتشـديد الـدال المفتوحـة) يتطلـب مواصفات عسيرة ، وصلاحيات رائدة ، وإيماناً عالياً يعين عـلي الارتفـاع فـوق الشدة ، وفوق الرخاء ، وصبراً وصلاة ، ويدا طـولي يسـتعان بهـا عـلي مشـاكل المجتمع ، ونوازع النفس ، وعقبات الطريق.

فلابد إذن من تربية تصوغ النساء الأوليات وكل النساء صياغة ذهبية نقية.

هذه التربية الهادفة تكفلت بها الآيات التي تلت آية التخيير ، وتعانقت كـل آيات البيئة القرآنية لتفيد أن النساء اذا جمعن كل هذه السجايا فأردن الله ورعاتٍ محتسباتٍ ، وأقبلن عـلي رسـوله راضـيات ، ملتزمـات ، وقنـتن لله خاشـعات عاملات، وترفعن عن النوازع الدنيا ذاكرات زكيات ...الخ كن جديرات بالمقام

---

[1] كتاب المظالم حديث٢٤٦٨ من حديث طويل.

الأسمي لا فرق في هذا بين قريب وبعيد. فالله الذي لا يضيع أجر من أحسن عملاً هو سبحانه القائل ﴿ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً ﴾ النساء٦٩. الطاعة المعنية هي الطاعة الدائمة المداومة بالخشوع . هي القنوت .

الغرم والغنم

ويحلو لأعداء الحقيقة أن يقفوا طويلاً أمام قوله سبحانه ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً ﴾ الأحزاب٣١. زاعمين أن غيرهن يؤجر مرة . أما هن فيؤجرن مرتين. ويشيعون أن المرة الثانية التي خصصن بها فائدة ربوية فكيف أقرها الاسلام دين الفرص المتكافئة؟

وعلماؤنا يقولون ان المضاعفة ترتبت مرة علي الطاعة ، وأخري علي طلبهن رضا رسول الله بحسن الخلق وطيب المعاشرة . وظني أن هذا التبرير ـ علي وجاهته ـ غير كاف.

والحق أن القاعدة المراعاة هنا هي قاعدة "الغنم بالغرم" فهن أن وعدن باجرين فقد وعدن بعذابين . وأولئك الذين تفتحت أعينهم لكلمة "مرتين" عموا وصموا عن كلمة " يضاعف لها العذاب ضعفين " وتجاهلوا مضاعفة العذاب التي سبقت مضاعفة الأجر: ﴿ يَا نِسَاء النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ﴾ ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً ﴾ الأحزاب٣٠، ٣١.



العدالة إذن قائمة لأنهن إن اختصصن بحسن جزاء عند الاحسان وإن انحرفن فقد اختصصن ـ دون غيرهن ـ بسوء عذاب عند الانحراف.

بل الحق أن غرمهن فوق غنمهن . ذلك لأن مضاعفة الحسنة أمر مشترك بين الجميع ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ البقرة٢٦١ .

أما تشديد النكير، ومضاعفة العذاب فهو إجراءُ فريد لا يعم الناس جميعاً . ذلك لأن عامة الناس إن أساءوا حسبت أساءتهم سيئة واحدة ﴿ مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ الأنعام١٦٠ . والسنة الشريفة أكدت هذا المعني فقد أخرج مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: "إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين[١] . فمن هم[٢] بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة[٣] . فان هو هم بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلي سبعمائة ضعف إلي أضعاف[٤] ، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده[٥] حسنة كاملة، فان هو هم بها فعملها كتبها الله عليه سيئة واحدة[٦]".

ولا شك أن مجال الذكر والتعلم متاح لأهل النبوة الملتصقين به ، أكثر مما هو متاح لغيرهن وهذه ميزة تفضل الله بها عليهن ، فان سارعن مع هذا إلي التقوي،

(1) بين ذلك أي فصل ذلك المجمل بما يتلوه.
(2) الهم أول العزم والمراد العزم نفسه لما رواه أحمد وصححه ابن حيان والحاكم "من هم بحسنة يعلم الله انه أشعر بها قلبه وحرص عليها ..."الخ.
(3) الوصف بالكمال لرفع توهم نقص الحسنة لكونها نشأت عن الهم المجرد عن العمل
(٤) الضعف المثل اي إلي سبعمائة مثل إلي أمثال كثيرة ، وذلك بحسب الاخلاص وصدق العزيمة وحضور القلب ، وإيقاع الانفاق في أحسن مواقعه وتعدي النفع
(٥) العندية للتأكيد والتشريف
(٦) التأكيد بالواحدة يفيد عدم المضاعفة البخارى حديث٦٤٩١ كتاب الرقاق وكتاب التوحيد ٧٥٠١ مسلم الإيمان حديث١٣١ .

وتحلين بالجلال وتوشحن بالمهابة وتجنبن الشبهات ..الخ حظين بالسبق وانفردن وتميزن. وهذا مفاد قوله سبحانه: ﴿ يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ[1] بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً ﴾ الأحزاب٣٢.

وإجتماع هذه الخلال قد يكون عسيراً اذا استمر البروز ، ومخالطة الناس والضرب في الطرقات. ومن أجل هذا أمرن بوقار يفضي الي الاستقرار. أو باستقرار يجمله الوقار ، والرزانة ويملأ جنباته الذكر ، والتعبد ، والاحسان وقرن في بيوتكن ، ولا تبرجن تبرج الجأهلية الأولي[2] وأقمن الصلاة ، وأتين الزكاة ..." والأمر بالوقار أو الاستقرار حكمة أخري هي أن المرأة قد تكون عامل إثارة من حيث لا تدري . ذلك لأن في الرجال من يعاني الحساسية المفرطة التي تورث اللهاث من لا شيء ومن أي شيء ، وتقتلع المعاني الانسانية لتزرع مكانها الشبق (شدة الشهوة) وتضرم النار . وأصحاب هذه النفوس المريضة ربما حملو (بتشديد الميم) الحركة العادية ، واللفتة البريئة، والنظرة المرسلة علي سجيتها ، والكلمة الساذجة ..الخ فوق ما تحمل . وخشية عدوي ، وعدوان هؤلاء المرضي أمرت (بالبناء للمجهول) النساء بالوقار ، والقرار . وأولئك المرضي بداء الكلب يتملكهم السعار اذا اشتموا رائحة التبرج أو التقطوا كلمة راقصة . فكيف بهم حين يسود العري ، وتعم الخلاعة ، ويفجر الجسد ، وتزني العينان ؟ أوعيت مغزي قول الله " فيطمع الذي فى قلبه مرض " ؟ وهل فهمت

---

[1] من الخضوع بالقول الترقق ، والتمتع ، والرخامة، والقبح والاشارة بالعين والحاجب والشفتين وكلها رذائل مهلكة تعم اجبالنا الشاردة.

[2] الجأهلية الأولي كل جأهلية لم يهذبها دين ولم يكبح جماحها القيم والعادات والعرف الكريم، هم أصحابها الانطلاق كالسوائم أو الضواري كل ما يكفل إشباع الغريزة وإطفاء أوار الشهوات.



أن تبرج الجاهلية الأولي هو سيادة الخلاعة، وزني الحواس ، وفجر الجوارح ، وداء العينين وصراخ الجسد؟

حقيقة إرادة الله

وهذه الارادة التي جاءت في آية "إنما يريد الله ..." إرادة مؤكدة "بانما" "واللام" "والمفعول المطلق المؤكد".

فهي إذن إرادة نفاذة ، خارقة تقطع بحصول المراد، ويحق لنا ـ نحن ـ أن نتساءل : هل إثبات أمر لشيء يعني نفي ثبوت هذا الأمر لأشياء أخري؟ وهل معني أن يريد الله لنساء نبيه ما أراد أنه سبحانه أراد لغيرهن الرجس، والدنس؟ ثم ما حقيقة الارادة التي يهلل لها المتصوفة والشيعة، والمستشرقون ؟ أن المولي بين في كتابه أنه يريد بنا اليسر ، والاعتدال ، والتوبة..الخ فهل تحقق هذا لكل المخاطبين ؟

قال الامام ابن تيمية (في الجزء الرابع من منهاج السنة) " ليس في الآية دليل علي مزاعم الشيعة وغيرهم، وتحقيق ذلك في مقامين : أحدهما أن قوله ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ ﴾ كقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ المائدة٦ . وكقوله ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ

الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ البقرة١٨٥. وكقوله ﴿ يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ﴿ وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً ﴾ النساء٢٣ ﴿ يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً ﴾ النساء٢٨. فان إرادة الله لهذه الآيات متضمنة لمحبة الله لذلك المراد ورضاه به ، وأنه شرعه للمؤمنين وأمرهم به . ليس في ذلك أنه خلق هذا المراد وانه قضاه وقدره ، ولا أنه يكون لا محالة .. والدليل علي ذلك أن النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. فلو كانت الآية تتضمن إخبار الله بانه قد أذهب عنهم الرجس ، وطهرهم ما احتاج الي الطلب والدعاء . ثم قال الامام رحمه الله : والارادة في كتاب الله نوعان :

١ - ارادة شرعية دينية تتضمن محبته ورضاه . (مثل تلكم الآيات التي سردت) .

٢ - وارادة كونية قدرية تتضمن خلقه وتقديره كقوله سبحانه ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾الانعام ١٢٥. وكقول نوح ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾هود٣٤ انتهي كلام الامام باختصار.

اذن فليست الآية بدالة علي وقوع المراد ـ من تطهير ، وإذهاب رجس.

دعاء الرسول

فان قيل : دعنا من الآية . ويكفي أن النبي دعا لأهل بيته بالتطهير ، وإذهاب الرجس . بل قد ورد أن النبي ﷺ جمع عليا ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين ، ثم جللهم بكساء كان عليه ثم قال "هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس[1] ..." رواه الترمذي.

قالوا : وتجليلهم بالكساء علي هذا النحو يدل علي حرص وإهتمام وتخصيص . قالوا : والرسول مستجاب الدعاء وأهل بيته منحوا ـ بدعائه ﷺ ـ درجة لم تتحقق لغيرهم. ونقول إن رسول الله ﷺ كان في مثل هذه المواقف أباً بكل ما تحمل كلمة "الأب" من معان. ومثله ـ هنا ـ كمثل والد اندفع إلي ابنه ـ اندفاعاً فطرياً ـ يضمه ويلئمه ن ويدعو له. والرسول ﷺ لم يفطر علي الصلابة والفظاظة ، والقسوة بل كان أغني العالمين بالمشاعر الانسانية التي كانت تئول في كثير من المواقف الي مشاركة وجدانية عالية المستوي كما وضح آنفاً.

وظني أن دعوات الرسل عليهم السلام ليست محتمة الاجابة . فقد استغفر ابراهيم لأبيه . واستغفر لا جدوي . واستغفر رسول الله ﷺ لمنافقين وكان الرد" ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ..﴾ التوبة٨٠. والرسول ان دعا لأهله ، وانا خيركم لأهلي " ونهجا لمنهج القرآن في الترتيب "قوا انفسكم ن وأهليكم ناراً.." وهو ﷺ لم يوقف دعواته علي أهله بل طالما دعا لأمته، والدليل علي أن دعاء الرسول ليس حتمي الوقوع ـ

[1] اخرجه الترمذي إلا ان الشيخين لم يصححاه اذ في اسناده نظر . هذا ولقد تفنن المتدروشة في حديث الكساء وزادوا فيه زيادات جعلته أشبه بالملهاة أو المسرحية الهزلية . الترمذى في كتاب المناقب حديث٣٨٧١ جـ٥ ص٦٩ وفي السند: شهر بن حوشب لا يخلو من كلام لذلك قال الترمذى: هذا حديث حسن وهو أحسن شيء روى في هذا الباب، وكلمة أحسن ما روىء في هذا الباب لا تفيد صحة الحديث.



علي النحو الظنون ـ قوله ﷺ: (لكل نبي دعوة مستجابة، تعجل كل نبي دعوته، وإني ادخرت دعوتي شفاعة لأمتي الي يوم القيامة..)[1] انه ﷺ ادخر دعوته العصماء لأمته، لا لأهل بيته. فأين المحسوبية وأين المحاباه؟

فضل الله

أفضنا في الحديث عن قضية أهل البيت ، ومرادنا ان نذود عن الاسلام، ونتصدي للذئاب والثعالب والدببة[2] التي تنهش في عرض الاسلام وتشكك في قيمه المثلي.

وليس مرادنا أن ننفي أن هناك فاضلاً ، ومفضولاً . فقضية الفاضل والمفضول قضية كونية عامة ، والله الذي لا يسأل عما يفعل يصطفي ، ويميز ، ويرفع درجات من يشاء ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَـكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ البقرة٢٥٣.

والله بفضله يتدارك كل العباد ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ النور٢١.

---

[1] البخارى كتاب الدعوات حديث ٦٣٠٤ وكتاب التوحيد٧٤٧٤ مسلم في الإيمان حديث١٩٨، ١٩٩ من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

[2] الذئاب والثعالب أمثلة لغدر الأعداء ، ومكرهم . والدببة جمع دب والدب يضرب مثلاً للصديق الجاهل كالمتصوفة .



ولكنه سبحانه يختص برحمته من يشاء، ويضفي من فضله علي العباد بمقادير متفاوتة تبعاً لحكمته التي لا تكتنه[1] . ومظاهر فضل الله علي الناس نشـهدها في الغدو والرواح متفاوتة . ففضل الله لا يقاس بمقاييسـنا ، وتوزيعـه لا يخضـع لحساباتنا .

والله الهادى إلى سواء السبيل

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين عامة؛؛

---

(1) لا تكشف .



الفهرس

الموضـــــــــــــوع الصفحة

الموضـــــــــــــوع الصفحة

الموضـــــوع الصفحة



